حسين السيد

رواية

دير النعمان

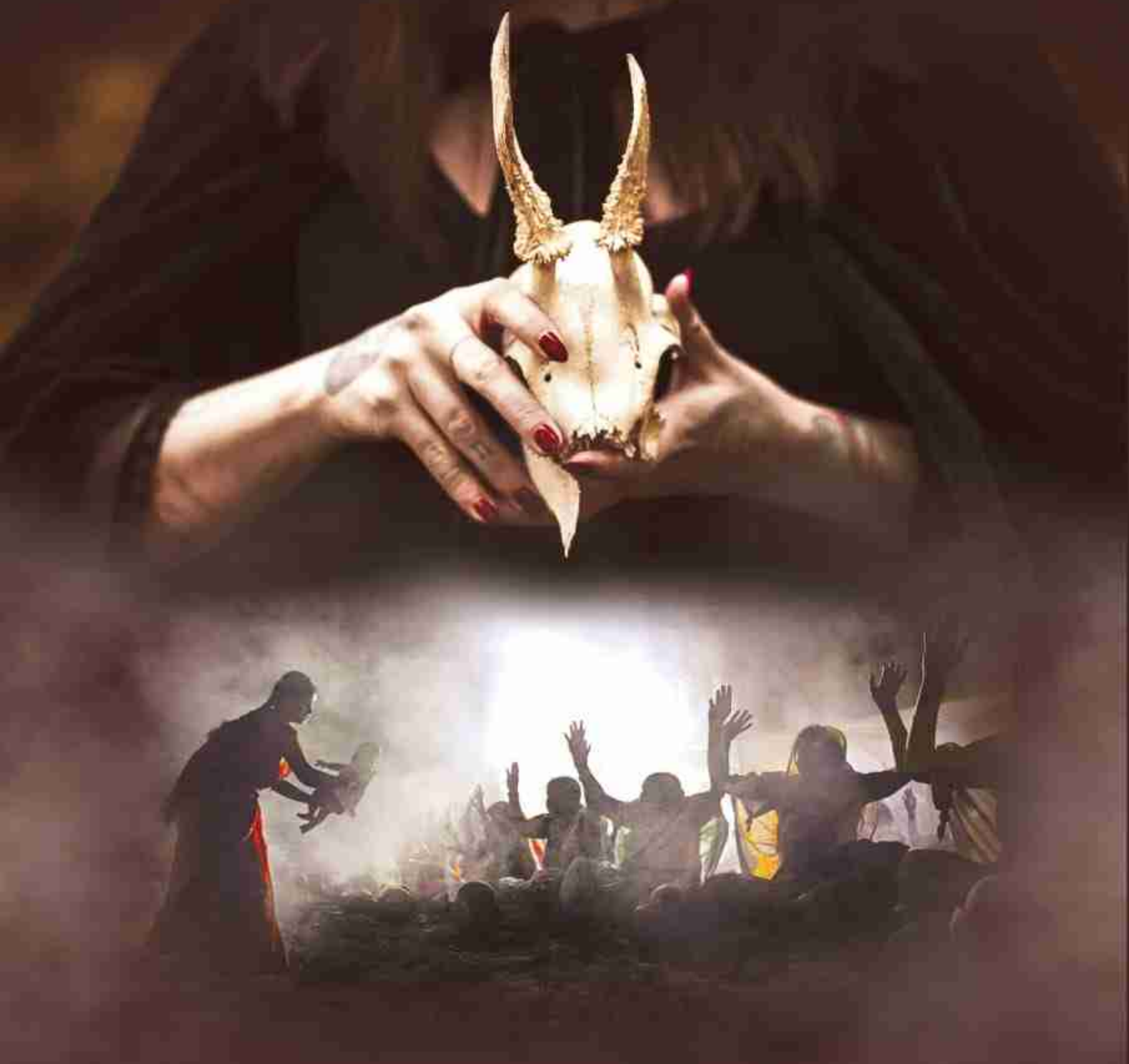

دير النعمان

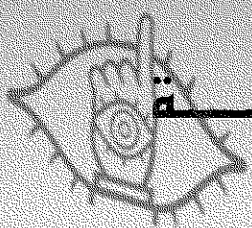

رواية

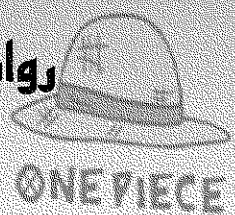

حسين السيد

BOOKS N
ن للنشر والتوزيع

(1)

كانت الشاحنة المتهالكة، تتأرجح فوق الطريق الرملي غير الممهد، ككرة من المطاط تطوحها الأقدام. كان نهارا شتويا غائما. وفي الأفق توارت الشمس خلف السحب الرمادية الكثيفة، بينما أخذت موجات متلاحقة من الرياح الباردة تضرب السيارة بعنف وهي تصفر في قوة.

لو كان فتحي عبد الوهاب الطبيب الشاب القادم من القاهرة قد عاش في الإسكندرية لبعض الوقت لقرأ تلك العلامات ولأدرك أن هناك نوة شتوية عنيفة قادمة لا محالة بعد وقت قصير.

عاد سائقها العجوز اللحوح لمحاولاته الدؤوبة في فتح سبيل للحوار:

-معذرة أيها الشاب. لكني لا أفهم ما الذي يدفع أي شخص عاقل للذهاب إلى دير النعمان؟

-أخبرتك منذ اللحظة الأولى أنه عملي! أنا أعمل كطبيب وقد تم تكليفي بالعمل هناك.

أجاب فتحي باقتضاب، وعيناه معلقتان بالصحراء الممتدة من حوله في كل اتجاه على مرمى البصر. رمقه السائق بنظرة جانبية في بعض الشك قبل أن يقول:

-ولماذا اخترت تلك البلدة بالذات، معذرة لو ظننت أنني رجل يدس أنفه فيما لا يعنيه يا دكتور، لكن حين

ترى دير النعمان وتعيش فيها ستفهم سر هشتي، إنها بلدة منسية لا يعرفها الكثيرون، حتى السائقين في موقف السيارات أغلبهم لم يسمع بها قط، ودن سمع بها لا يعرف كيف يذهب إليها.

كان السائق صادقا في هذا، فحين وصل فتحي إلى محطة سيارات الأجرة بطنطا في الصباح الباكر، وراح يسأل جميع السائقين والمنادين في محطة السيارات عن بلدة -دير النعمان- أجابه أغلبهم بأنهم لم يسمعوا بها من قبل، لكن العجيب أنه رأي في عيون البعض أنهم يعرفون تلك البلدة. كانوا يتبادلون النظرات الغريبة المتوجسة حينها، قبل أن يجيب أحدهم في عداء لا مبرر له:

- لا نعرفها

بل إن أحدهم وقد كان سائقا عجوزا بدينا لم يحلق ذقنه من أكثر من أسبوع كامل، صرخ في وجهه:

- المجنون فقط هو من قد يفكر في الذهاب بقدميه لتلك البلدة اللعينة. لو كنت مكانك أيها الشاب لعدت أدراجي ونسيت أمر تلك البلدة تماما.

سأله فتحي عن تفسير ما قاله، لكن السائق أعرض بوجهه عنه ونهض من مكانه ورحل بعيدا دون أن يهتم بإجابته. مضت نحو الساعة وقد فشل في العثور على عربة تقوده إلى دير النعمان، قبل أن يتوقف خارج موقف السيارات في حيرة والمطر يغرق رأسه. هنا

ظهر عبدالناصر البربري، سائق عجوز نحيل للغاية كأعواد الثقاب، عيناه حمراوان، وذقنه طويلة ومقدمة أنفه السائل محتقنة، من الوهلة الأولى أدرك فتحي أنه مدمن شراب، ووجد الرجل يقول:

- لن يقودك إلى تلك البلدة أي منهم أيها الشاب المسكين، لكن اليوم هو يوم سعدك يا فتى، ولهذا سأقلك أنا إلى هناك، لكن الأجرة ستكون مضاعفة.

لم يفكر فتحي في الأجرة المضاعفة، ووافق على الفور رغم ان رائحة الرجل وهيئته الرثة لا توحي بالثقة، فقاده الرجل إلى شاحنة بضائع متهالكة، وتناول حقائبه وراح يرفعها نحو سطح الشاحنة وهو يقول:

- لا تلق بالا لهيئتها، إنها شاحنة قوية وتستطيع أن تصعد بها قمة جبل لو شئت، سوف ترى بنفسك.

وها هو الآن داخل الشاحنة ومازال عبد الناصر البربري سائقها يدخن سيجارة تلو الأخرى دون أن يكف عن الحديث، سجائر ملفوفة تنبعث منها رائحة عشبية مميزة.

رائحة الحشيش!

إذن فالرجل ليس سكيرا فحسب، بل ويتعاطى المخدرات كذلك.

غمغم فتحي وهو يشعل سيجارة من علبة سجائره هو الأخر، وقد لاحظ أن الطريق الصحراوي من حوله لا يحمل أي إشارات أو دلالات تشير إلى أين يتجهون رغم انقضاء

نحو الساعة وهم يسيرون على طريق رملي صخري:

- هل تعرف حقا أين هي دير النعمان؟

- هذا من حسن حظك أيها الشاب المتشكك في عبد الناصر البربري المسكين، لقد اعتدت منذ سنوات كثيرة أن أنقل منها التمر والزيتون والتين إلى دلنطا مع بعض السائقين الآخرين، وفي طريق العودة أدمل في شاحنتي ما تحتاجه البلدة من بضائع وسلع. دلل هذا يحدث حتى العام الماضي. بعدها لم يعودوا يصلبونني. صدقني لقد ظننت من قبل أنني لن أراها ثانية.

غمغم فتحي في ضجر:

- وها أنت تفعل؟

- فقط من أجل خاطرك يا دكتور.

- ولماذا لا تقل إنه لقاء الأجر المضاعف الذي طلبته.

- إنه أجر عادل تماما يا دكتور. أرجو ألا تظن أني ظلمتك أو استغللتك، صدقني لا أحد يجرؤ على المجيء لهذا الطريق، إنه خطر للغاية، انظر حولك إلى تلك الكثبان الرملية الناعمة اللعينة، إنها ليست متماسكة وثابتة كما تبدو، إنها رمال متحركة خادعة ماكرة، بحيرات من الرمال الحية تنتظر فقط لو أخطأت الطريق ولو لأمتار قليلة لتصنع لي وسيارتي قبر أنيقا سفلها، لكنني صرت خبيرا بهذا الطريق، ويمكنني أن أقود السيارة فيه وكلتا عيناي مغلقتان.

رمق فتحي الكثبان الرميلة الناعمة الصفراء، ثم نظر للسائق الذي تبدو عليه بعض آثار الثمل، قبل أن يتمتم في قلق:

- سأكون ممتنا أكثر لو أبقيت عينيك مفتوحتين، وانتبهت للطريق حتى نصل للبلدة.

لاذ السائق بالصمت مرة أخرى في تذمر وهو ينفث سيجارة نفاذة الرائحة وكأنه لا يريد أن يصمت، تمنى فتحي لو يطول صمته هذا المرة لفترة أطول، يعلم أن السائق العجوز النحيل سيعود بعد قليل لمحاولة الحديث معه ثانية، فمنذ الساعة وهو يفعل، يعود ليسأله لماذا يرغب في الذهاب إلى دير النعمان، ثم يحاول أن يرهبه من هذا المكان بكلمات مبهمة غامضة.

تمنى فتحي لو تركه لحاله، في النهاية هو لا يؤمن أو يكترث بخرافات الرجل أو أوهامه ولو للحظة واحدة.

راح يتأمل الصحراء الممتدة أمامه بلا نهاية وكثبانها الرملية ترسم لوحات ساحرة من هضاب وتلال منخفضة وأخاديد طوال الوقت، في الماضي كان يكتب الشعر، وكان يهوى الصحاري ويعتقد أن رمالها الغامضة أكبر محفز للتأمل والحكمة، الآن صارت الصحاري لا تذكره بغير الدم واللحم المحترق والأشلاء الممزقة والجثث المكومة على الرمال لتفترسها الضواري، ولا تجد من يدفنها.

صارت الصحاري تذكره برائحة الخوف والموت. تذكره بالطائرات القادمة من السماء كوحوش من الماضي،

محملة بالقذائف والرصاصات والهلع والموت.

كانت الصحراء تذكره بالعطش الرهيب الذي دمعه في النهاية لشرب بوله كي لا يموت من الظمأ.

كانت الصحراء تذكره بالهزيمة المريرة التي سيظل طعمها المرير في حلقه وحلق من بقي حيا من رفاقه إلى أبد الدهر.

نبض فخذه الأيسر بالألم، وكأنما ذكرت الصحراء قدمه بإصابتها الكبيرة والتي تم إعفاؤه من استكمال خدمته بالجيش بسببها،تذكر تلك الشظية التي نتجت عن قذيفة لا يدري إن كانت قد جاءت من السماء من فوقه، أم من أسفل قدمه، لتستقر في عظمة فخذه، وسببت له عاهة مستديمة وعرجا لن يزول كما أخبره الجراح في المستشفى العسكري.

نفض تلك الأفكار السوداء عن رأسه، وهو يرى من بعيد ما بدا له كقمم النخيل، بينما هتف السائق في انتصار:

- لقد اقتربنا. دقائق عشر فقط ونكون هناك. هل ترى رؤوس النخيل تلك؟ إنها مدخل دير النعمان.

- أشكرك.

أخرج السائق قنينة معدنية صغيرة ارتشف منها بضع جرعات، ثم أعادها لجيبه وفتحي يراقبه، إنها خمر رخيصة بلا شك، لكنه تجاهلها، بينما نظر السائق أمامه

وقال محذرا بصدق:

- صدقني لو كنت مكانك يا دكتور لتراجعت، عد للقاهرة وأخبر من أرسلوك أنك لم تنجح في الوصول إلى تلك البلدة اللعينة. حاول أن تبحث عن واسطة في عملك ترسلك إلى مكان آخر. الأمر كما أعتقد ليس مستحيلا.

- ربما فات وقت التراجع بالفعل.

- من قال هذا؟ يمكنني أن أعيدك الآن إلى طنطا. بل يمكنني أن أعيدك للقاهرة نفسها لو شئت. فقط لو قررت هذا.

نظر إليه فتحي في شك، ثم قال ببطء:

- هل تخفي شيئا عني؟

هرب السائق من نظرته قبل أن يدس سيجارة جديدة ملفوفة في فمه لتعود الرائحة النفاذة لتملأ فراغ السيارة، قبل أن يقول:

- أنا لا أعلم شيئا لأخفيه.

أخرج فتحي حافظته من جيبه ونقده أجره، وهو يقول:

- أشكرك مرة أخرى. لكنني أعتقد أنني أرغب في البقاء هنا بعض الوقت.

رمقه السائق وكأنه يشك في أنه هارب من شيء ما. هيئته السقيمة ونظرته الزائغة غير المستقرة تشي بأن هذا الشاب وراءه سر ما. ربما كان هاربا من ثأر مثلا؟

ربما اقترف جريمة ما ويرغب في الاختباء من أعين الشرطة. وربما كان مجرد شاب تعيس قاده سوء حظه إلى هنا جاهلا بما هو مقدم عليه من أخطار.

كان الفضول يقتل ناصر البربري ليعرف حكايته، لكنه يعلم أن هذا الشاب الغامض لن يجيبه مهما سأل. رمقه مرة أخيرة بعين دامعة وهو يمسح أنفه في منديل قذر، ثم التف بالسيارة ليتفادى حجرا ضخما يعترض طريقه، قبل أن يهز رأسه في غير تصديق ويغمغم في سره:

- كلا هذا الشاب لا يبدو أبدا كمجرم، هو للمجذوب أقرب، ربما هو بائس هزمته الحياة.

أما فتحي، فقد واصلت عيناه مسح المكان، من حوله بدأ اللون الأصفر للرمال في الانحسار تدريجيا مفسحا المجال للون الأخضر، مزارع شاسعة على مد البصر من أشجار الزيتون والتين والنخيل. لكن العجيب أنه رغم أنه في وقت الظهيرة، فلم ير أي شخص يعمل في المزارع. فقط لاحظ أن ثمار الزيتون متراكمة فوق الأغصان وكأنما لا أحد يعبأ بقطفها.

تقدمت السيارة أكثر وأكثر نحو البلدة وقد ظهرت مبانيها المنخفضة من بعيد، ووجد فتحي السائق يقول في دهشة:

-كما تقول الهمسات، من العسير أن تلتقي بأحدهم طالما لم تدخل البلدة.

- لقد لاحظت هذا، فلم نلقى في طريقنا أي شخص في الحقول أو الطريق.

- لا أدري ما سر هذا، لكن هذا غريب، في الماضي اعتدت في مثل هذا الوقت أن ألتقي ببعض الصبية وهم يرعون الغنم، وبعض المزارعين وهم يجمعون ثمار تلك الأشجار.

كان قلب فتحي متوترا بشدة وهو يشعر أن هناك ما يريب في هذه البلدة، وهمس:

- حتما هناك تفسير.

- وما شأني بالتفسير، دوري أن أوصلك إليها، وها قد فعلت، لقد وصلنا إلى نهاية الرحلة بالفعل أيها الشاب.

قالها وقد بدأ يهدأ من سرعة شاحنته، قبل أن يتوقف بين جدارين حجريين متهدمين يبدوان وكأنهما ما بقي من سور حجري قديم كان يحيط بالبلدة في أزمنة غابرة. والتفت السائق اليه وقال مبتسما:

-سوف تهبط هنا يا دكتور.

-ألن ترافقني بالسيارة لداخل البلدة؟

ولا متر واحد بعد هذا المكان، أهل هذه البلدة يرفضون تماما أن تتقدم أي مركبة مترا واحدا خلف هذه البوابة.

- أي بوابة تقصد؟

- تلك الفرجة بين هذين الجدارين الحجريين. إنه مدخل البلدة وهم يطلقون عليه البوابة.

أمام إصرار السائق لم يجد فتحي بدا من الترجل، بينما هبط السائق هو الأخر واعتلى سطح الشاحنة ثم ناول فتحي حقيبتيه الضخمتين. وهبط بعدها ليقول:

- هناك الكثير من البغال والحمير في القرية. ستجد حتما أحد ما ينقل تلك الأغراض من أجلك إلى وجهتك.

- لا بأس، لكنك ستعود بعد أسبوعين لتعيدني إلى طنطا كما اتفقنا.

ابتسم السائق العجوز في مكر وهو يقول:

- لو لم أفعل لقضيت ما بقي لك من عمر في تلك البلدة الكئيبة. لكن اطمئن يا دكتور، سوف أعود في مثل هذا الوقت وبالطبع عليك أن تكون بانتظاري هنا في الموعد وإلا غادرت من دونك.

راقبه فتحي وهو يبتعد بالسيارة، ثم ولى وجهه نحو البلدة التي بدت في تلك اللحظة صامتة كالقبور، ولا أثر واحد للحياة يأتي من داخلها، أين ناسها ولماذا اختفوا؟ أسئلة محيرة، لكن السؤال المهم كيف يصل للوحدة الصحية وهو لا يدري مكانها، كما كانت حقائبه الثقيلة تبعث الضيق في نفسه. في النهاية لم يجد مفرا من دخول البلدة وانتظار أن يتعثر في أحد سكانها حتى يسأله النصيحة. فحمل حقيبتيه وتقدم داخلها.

***

(2)

الصمت من حوله كان مريبا. صمت كامل، صمت سديمي بكر. وكأنما اختفت الأصوات كلها في هذه البلدة العجيبة، فقط أصوات خطواته كانت تلك التي تبلغ أذنيه، وحتى تلك حاول أن يصنعها بأقل ضجة ممكنة وكأنما يخشى أن يكسر هذا الصمت السرمدي.

اجتاز البوابة الحجرية المتهدمة وسار لنحو المائتي متر قبل أن ينقسم الطريق أمامه، طريق يتجه للشرق وآخر نحو الغرب، وعلى جانبي كل طريق تراصت بيوت البلدة إلى جوار بعضها البعض في تلاحم تام، بيوت قديمة أغلبها مبني بالحجارة، كانت البيوت من طابق واحد أو اثنين على الأكثر، بيوت ذكرته بمنازل أهل قريته التي انحدر منها أبواه، لولا أن الأخيرة كانت من الطوب اللبني، الطوب الأخضر كما يحلو للفلاحين تسميته.

الحقائب في يده كانت ثقيلة، وهو واقف لا يدري إلى أين يتجه، فقط لو يرى أحدا من أهل تلك البلدة الغامضة، ويخبره أين هي الوحدة الصحية ليتجه إليها. دار رأسه بحيرة أكثر من مرة ثم حزم أمره، اتخذ الطريق الشرقي وهو يدعو الله أن يكون حدسه سليما. راح يتلفت حوله طوال الوقت، ينتظر أن يسمع صوت واحد من خلف الأبواب الخشبية الموصدة في وجهه، صوت واحد يهدئ من روعه، تمنى لو يسمع صوت امرأة تطبخ، صريخ رجل يزعق، بكاء طفل يصرخ، حيوان يخور، طائر

يزقزق. أي صوت يخبره أن أهل تلك البلدة موجودون.

ثم ارتجف قلبه لخاطر عجيب، ماذا لو كان كل سكان البلدة قد هجروها لسبب ما، تذكر قول السائق العجوز الذي أخبره أنه لم يعد للبلدة منذ عام كامل. ماذا لو كانوا قد غادروها إلى مكان آخر ولم يصل مثل هذا الخبر لرجال وزارة الصحة في القاهرة، فأرسلوه اليها وهم لا يعلمون أنها خاوية على عروشها؟!

خاطر مرعب، لو كان هذا صحيحا فهذا يعني أن يقضي نحو الأسبوعين بمفرده في بلدة مهجورة وسط الصحراء. حتى يأتي ناصر البربري ليعيده للعالم الحي ثانية.

توقف وهو يلهث، وفكر للحظة وهو يرمق البيت المقابل له في تحفز إن كان عليه أن يطرق بابه ليتأكد بنفسه إن كان هناك من يحيا خلفه أم لا.

ثم رفع رأسه نحو السماء، نحو قمم النخيل، كان يفتش ببصره بحثا عن طائر ما، عصفور، غراب، صقر.. أي طائر يحوم في الفضاء، لكن السماء بدت أمامه خاوية على عروشها. الأمر ليس هجرة أهل تلك البلدة بلا شك، لو هجر البشر البلدة، فلن تفعل الطيور أو الحيوانات الضالة كالكلاب مثلا، طالما هناك نبات وماء. إنه لم يلق كذلك كلب ضال واحد أو قط أو حتى جرذ صغير.

وكطبيب راح خاطر مفزع ينمو ببطء في مخيلته.

ماذا لو كانوا موتى؟

مـاذا لـو كان هـو الشـخص الوحيـد الحـي فـي بلـدة أهلهـا أمـوات؟

هـل تكـون عـدوى مـا أصابـت أهلهـا فأهلكتهـم. كطبيـب يعلـم أن الأوبئـة قـد تفعـل هـذا. لطالمـا أفنـت الكوليـرا والطاعـون والانفلونـزا. راح عقلـه يسـتعيد مـا درسـه فـي علـم الأمـراض والوبائيـات.

فبيـن عامـي **541** و**542** م، ضـرب طاعـون جاسـتينيان العالـم آتيـاً مـن الإمبراطوريـة البيزنطيـة، وأودى بحيـاة أكثـر مـن ٣٠ مليـون شـخص.

وفـي عـام **735م**، ظهـر وبـاء الجـدري اليابانـي بطوكيـو وانتقـل إلـى البلـدان المجـاورة وأدى خـلال سـنتين إلـى مقتـل نحـو مليـون شـخص.

تذكـر كذلـك مـا درسـه عـن أكثـر الأوبئـة فتـكاً علـى مـر التاريـخ، كان الطاعـون الدملـي، والـذي سـمي أيضـاً «المـوت الأسـود»، وقـد انتشـر بيـن عامـي **1347** و **1351 م**، وتسـبب فـي وفـاة مـا يقـرب مـن **200** مليـون شـخص حـول العالـم، يعتقـد العلمـاء أنـه نشـأ فـي الصيـن أو بالقـرب منهـا، ثـم انتقـل إلـى إيطاليـا وبعـد ذلـك إلـى باقـي أنحـاء أوروبـا، ثـم إلـى مختلـف دول العالـم. أمـا الجـدري، فقـد حصـد أرواح **56** مليـون شـخص عنـد ظهـوره فـي عـام **1520م**.

فيمـا أودت الكوليـرا بحيـاة مليـون شـخص حـول العالـم بيـن عامـي **1817 و1923**م، وفـي عـام **1855م**، ظهـر نـوع متطـور مـن الطاعـون يُعـرف بـ «الوبـاء الثالـث»، فـي مقاطعـة

يونان الصينية لينتشر لاحقاً إلى جميع قارات العالم المأهولة ويودي بحياة **12** مليون شخص، وأدى انتشار وباء إنفلونزا روسيا، بين عامي **1889 و1890م**، إلى وفاة مليون شخص، وهو تقريباً نفس عدد الوفيات الذي تسببت فيه الإنفلونزا الآسيوية التي ظهرت في الصين في **1956م** بينما تسببت الإنفلونزا الإسبانية عام **1918م** في وفاة ما يقرب من **50** مليون شخص في عام واحد فقط ويقال إنها قد أصابت ربع سكان العالم تقريبا في ذلك الوقت.

هل أصاب وباء ما تلك البلدة المعزولة فأهلك أهلها وحيواناتها وطيورها، ربما هذا ما حدث، وربما كان هذا تفسيرا مقبولا لاختفاء كل اشكال الحياة الأدمية والحيوانية من حوله. هل شعر سكان البلدة بالوباء، فاغلق كل واحد منه باب بيته عليه ليموت في فراشه. وربما لم يعلم به أحد في الدولة لأن المرض لم يتجاوز حدود البلدة.

شعر بالهلع، لو كان الأمر صحيحا فهو في خطر، خطر الإصابة بالوباء المميت الذي ربما كان عالقا بأي شيء من حوله.

والخطر الأخر الأشد فزعا أن يضطر للحياة في بلدة الموتى تلك بمفرده لأسبوعين كاملين. أمر مفزع يشبه ان تعيش داخل قبر بجوار جثث الموتى وأشباحهم.

هذا المرة لم يتمالك نفسه، فدار حول نفسه، وهو

يصرخ:

-هل من أحد هناك. يا أهل دير النعماااان، أين أنتم؟

كررها أكثر من مرة حتى بح صوته، راحت قدمه اليمنى المصابة تنبح بالألم، ألم رهيب أيقظه الفزع. ورغم هذا اتجه إلى أقرب باب أمامه، وراح يقرعه بكلتا يديه في عنف، ولما يأس اتجه إلى باب ثان وثالث ورابع وراح يجرب حظه دون جدوى. في النهاية غلبه اليأس فتوقف عن قرع البيوت الصامتة.

مسح الدموع الخفيفة التي انبثقت من عينيه بكف يده ثم عاد ليحمل حقيبتيه الثقيلتين ويواصل السير ببطء هذه المرة، وعلى غير هدى. الطريق الشرقي ظل ممتدا أمامه لمسافة كبيرة، والشوارع الجانبية التي كانت تظهر بين حين وآخر على جانبي الطريق كانت قصيرة في أغلبها وتنتهي دوما ببيوت تغلق نهايتها. كان الطقس يفقد دفئه وقد راحت الرياح الباردة تنشط في الشوارع الخاوية مرة أخرى، فشعر بالبرد.

مضى وقت لا يدري كم هو حين وجد نفسه فجأة في مواجهة بناء حجري من طابقين من الحجارة كالبيوت الأخرى، لكنه مطلي بلون جيري أبيض. كان هناك سور يحيط بالمبنى وداخله ظهرت رؤوس أشجار طويلة كثيفة الأغصان.

كانت اليافطة على واجهته صغيرة مكتوبة بخط غير

منمـق تمامـا.

(الوحدة الصحية)

(بلدة دير النعمان)

توقـف أمامهـا غيـر مصـدق لمـا يـراه أمامـه، وبخطـوات جـادة دلـف البـاب الخشـبي المفتـوح فصـار داخـل السـور، كانـت هنـاك بضـع مقاعـد خشـبية وضعـت لانتظـار المرضـى غالبـا، بينمـا كانـت أرض الفنـاء مغمـورة بالكثيـر مـن أوراق الشـجر المصفـرة الجافـة. اتجـه مباشـرة نحـو بـاب مفتـوح يقـود إلـى داخـل المبنـي، وضـع حقائبـه أرضـا، حيـن بلـغ البـاب وسـار فـي رواق طويـل علـى جانبيـه أكثـر مـن حجـرة مغلقـة الأبـواب.

الحجـرة الأولـى كان مكتـوب عليهـا غرفـة كشـف الرجـال، والثانيـة كانـت مخصصـة للأطفـال، والثالثـة كانـت للنسـاء، ثـم جـاء دور الحجـرة الرابعـة وقـد ظهـر فـي قلـب بابهـا نافـذة صغيـرة مكتـوب فوقهـا، الصيدليـة، بـدا وكأن مـن قـام ببنـاء المـكان قـد تعمـد تزويـده بـكل الخدمـات المناسـبة لتقديـم خدمـة طبيـة شـاملة، لكـن مـاذا عـن القـوى البشـرية، هـل رأت هـذه الوحـدة الصحيـة أكثـر مـن طبيـب فـي وقـت واحـد، هـل عمـل بهـا صيدلـي مثـلا؟

طـرد تلـك الأفـكار واتجـه إلـى أخـر بـاب فـي مواجهتـه، كان مفتوحـا، وحيـن اقتـرب منـه خرجـت منـه بغتـة سـيدة مـا.

انتفـض فـي فـزع حقيقـي، وهـو الـذي لـم يتوقـع أن يجـد

أحدا ما في المكان، ظلت السيدة تنظر إليه بنظرات جامدة، كانت كما يبدو سيدة ناضجة في منتصف الاربعينات من عمرها، ذا بنية ضخمة حتى أن طولها تجاوزه شخصيا، ووجه عادي مائل للسمار جاف التعابير. تمالك فتحي نفسه وقال بارتباك معتذرا:

-معذرة، لقد فاجأتني، في الحقيقة لم اتخيل وجود شخص ما في المكان.

ظلت ترمقه بجمود دون ان تجيبه، شعر بعدم الراحة من نظراتها الحادة الباردة، ولم تجبه عاد للحديث فقال:

-أنا دكتور فتحي عبد الوهاب. طبيب الوحدة الجديد. لقد أرسلوني من القاهرة إلى هنا.

ظلت ترمقه لنحو الثواني العشر قبل أن تفتح فمها بالحديث للمرة الأولى:

-حجرتك بالأعلى يا دكتور.

كان هذا أخر ما توقعه، لم يسألها عن حجرته، السؤال الأهم من هي، وماذا تفعل هنا؟ نظر إليها في حيرة لبعض الوقت، لاحظ أنها لاتزال ترمقه بنفس الجمود، في النهاية قرر أن يطرح عليها تساؤلاته:

-لم تخبريني من أنت؟

-اسمي عايدة، إنني الممرضة الوحيدة في هذه الوحدة.

كانت تجيب في آلية وبجمود غير آدمي، في يوم من

الأيام شاهد في السينما فيلم «فرانكشتين»، كانت الجثة في الفيلم تتحدث بنفس هذا الجمود. أدرك أن عليه التحلي بالكثير من الصبر ليسهل التعامل مع ممرضته الوحيدة تلك، فقال في هدوء:

-وهل هناك أحد غيرك يعمل هنا.

-هناك كاتب الوحدة. يدعى عبد النبي. لكنه لا يأتي الآن.

-وماذا عن أهل البلدة، والمرضى. أين هم؟

-لم يعد أحدهم يقصد الوحدة، لكن حين يفعلون لا يأتون بالنهار، انهم يأتون ليلا يا دكتور!

***

ONE PIECE
BOOKS

(3)

حتى في النصف الأخر البعيد من الوطن ظلت الكوابيس تطارده وتؤرق نومه، هب من الفراش وهو يلهث، يغمر العرق الغزير جبهته، وقلبه المذعور يخفق في صدره كطائر ذبيح. نظر إلى الظلام الذي تسلل للحجرة الواسعة عبر النافذة الزجاجية الكبيرة وهو يشعر بالحيرة، واحتاج للحظات كي يدرك أين هو وأي حجرة غريبة عنه ينام فيها الآن.

كان في الغرفة المخصصة له في الدور العلوي للوحدة الصحية ببلدة دير النعمان. لقد قادته عايدة إليها وأخبرته أن بإمكانه أن يحظى ببعض الراحة فيها. كان منهكا بشدة حين أتى، ولهذا فقد اكتفى بأن استبدل ملابسه ورقد على الفراش دون أن يفكر في ترتيب أغراضه. وعلى الفور غرق في النعاس.

نهض من الفراش وجلس على حافته شاعرا بصداع عنيف ينبض في رأسه، فرفع أنامله بحركة تلقائية نحو جانبي جبهته وراح يضغط عليها بقوة، وهو يغمض جفنيه ليخفف من شدة الألم. صداعه المعتاد الذي صار رفيقه الدائم مذ عاد من الجبهة قبل عام.

كان قد عاد من جبهة القنال بعد نكسة يونيو، وقد اصطحب معه طعم الهزيمة المرير وحشد مهول من الذكريات المرعبة والكوابيس الشنيعة التي تهاجمه في

كل ليلة، ومع كل هذا بدأ يعاني من صداع عنيف لا يفارق رأسه.

أخبره أحد أصدقائه، وكان يعمل طبيبا نفسيا أن هذا الصداع نفسي. واقترح عليه تناول بعض العقاقير المهدئة. تناول فتحي تلك العقاقير لبعض الوقت وحين أدرك عدم جدواها أهملها. قرر أن يتعايش مع الصداع وأن يعتاد عليه، وأن يكتفي بتناول بعض الأسرين كلما هاجمته نوبة عنيفة من الألم.

تحسس طريقه في الظلام وهو يفكر في البحث عن مصباح الكهرباء. لمس الحائط بالفعل وهو يبحث عنه، قبل أن يتذكر أن البلدة بأكملها لم يصلها خطوط الكهرباء بعد. أخبرته عايدة بهذا وهي تشير إلى بعض الشموع الموجودة إلى جوار الفراش والتي تركتها له كي يشعلها لو استيقظ في الظلام.

أشعل عود ثقاب فبدت الغرفة الواسعة غارقة في ظلال مبهمة تثير الرجفة في نفسه. رمق الفراش العتيق. الطاولة الصغيرة بجواره والتي وضع عليها علبة وبجوارها بضع ألواح من الشمع. وفي الناحية الأخرى من الغرفة كانت هناك خزانة خشبية فوقها بضع صناديق من الورق المقوى لا يدري بعد ماذا بداخلهما. ثم انطفأ عود ثقابه.

أشعل لفافة تبغ مفضلا الظلام واتجه إلى النافذة الزجاجية، ووقف خلفها يراقب الطقس الثائر بالخارج،

كانت الأشجار تتلوى في عنف، والريح تعبث بها كما تشاء، بينما راحت الأمطار تنهمر من السماء المظلمة والتي غاب القمر عنها، بلا انقطاع.

طقس شتوي رديء.

وبينما كان ينفث الدخان انتبه إلى الأشباح التي تتحرك في الظلام من بعيد قادمة من داخل البلدة وتتجه إلى الوحدة الصحية بلا شك. شعر بالدهشة، وضيق من عينيه ليرى من القادم، لاحظ كيف تتحرك الأشباح نحوه في ثبات رغم الظلام والريح والأرض الزلقة والمطر، كانا فردين، يحيطان بما بدا وكأنه حمار متوسط الارتفاع وقد امتطاه شبح ثالث في وضع غير مستقيم. هل يكونون من أهل البلدة؟ ولماذا اختاروا مثل هذا الوقت السيء للقدوم للوحدة، ولماذا لم يفعلوها في الصباح؟

ثم كان السؤال الأهم. أين كانوا في النهار؟

وعادت كلمات عايدة لتتردد في أذنيه، وهو يتذكر إجابتها عن سؤاله عن اهل البلدة، فوجد جسده ينتفض.

- لم يعد أحدهم يقصد الوحدة، لكن حين يفعلون لا يأتون بالنهار، إنهم يأتون ليلا يا دكتور!

كانت لفافة تبغه قد ذابت تماما في تلك اللحظة، في نفس الوقت الذي دلفت فيه الاشباح القادمة الباب الخارجي للوحدة الصحية وتوقف الحمار داخل السور، فأسرع اثنان منهم بحمل الجسد الراقد فوق الحمار ثم

غابا عن بصره وقد ابتلعهما مبنى الوحدة الصدية. خمن أنهم يبحثان عنه الأن، وتساءل كيف عرفوا بقدومه رغم أنهم قد أخبروه في القاهرة أن المكان بغير طبيب منذ زمن طويل؟!

ربما أرسلتهم عايدة!

اتجه إلى الطاولة الخشبية وأشعل إحدى الشموع ثم فتح حقيبة ملابسه، وأخرج منها معطفا ثقيلا، ارتداه في هدوء واستعد للهبوط.

خلف باب حجرته وجد رجلا ضئيل الجسد في نحو الخمسين من عمره، يقف صامتا وهو يحمل في يده مصباح نفطي، تشهق فتحي في فزع، ثم هتف في الرجل في استنكار:

-من أنت ولماذا تقف هكذا؟

على ضوء المصباح رمقه الرجل الضئيل بعين بليدة صغيرة، ووجه يحمل ملامح جرذ. دون أن يجيب. تبادلا النظر لبضع ثوان ثم عاد فتحي يتكلم في حدة:

- لماذا لا ترد؟

استدار الرجل دون أن يتحدث واتجه إلى السلم الخشبي ليهبط إلى الطابق الأرضي. لم يتبعه فتحي على الفور، وراح يتنفس في سرعة وهو يشعر بعدم الارتياح.

من هذا الرجل؟

خمن أنه قد يكون عبد النبي، كاتب الوحدة الذي لم يره حين أتى وأخبرته عايدة عنه. حتما هو ذلك العامل، لكن لماذا لا يرحب به مثلا أو يجيب على اسئلته. حسم أمره وقرر ان يدع الإجابة عن تلك التساؤلات حتى ينتهي من رؤية هؤلاء القوم المنتظرين بالأسفل. لاحظ أن ضوء المصباح النفطي مازال يضيء الدرج الخشبي فهبط في حذر، تحرك العامل الضئيل فور أن هبط وتقدم نحو الرواق المظلم ثم اختفي داخل أول غرفة في المبنى، كانت غرفة الكشف والملاحظة. تحرك في هدوء نحو الحجرة ليلاحظ تلك الرائحة الشنيعة التي غمرت المكان. همس في تأفف:

-ما تلك الرائحة الرهيبة، وكأن قبرا حديثا قد فتح أبوابه في المكان!

دلف الحجرة فلاحظ الرجلين اللذين يحيطان بالفراش وقد التصقت جلابيبهما بأجسادهما، وتكونت برك من الوحل والماء أسفل منهما، ثم لاحظ أن هناك طفل أخر لا يزيد عمره عن الأعوام العشرة، يقف وسطهما، خمن فتحي أنه لم يلحظه حتما في الظلام لضآلة جسده. كان عبد النبي يقف في جانب من الحجرة ومازال يحمل المصباح، ولاحظ فتحي أن الرائحة الكريهة صارت أكثر قوة وعنفا، فكر بسرعة وهو يتقدم، هل يكون أحدهم يتحلل حيا، أم أن جميعهم لا يعرفون النظافة؟

حاول كتم أنفاسه قدر استطاعته وهو يمني نفسه بالخلاص منهم سريعا، ونظر للشخص الراقد على

الفـراش وسـأل الباقيـن:

-ماذا به؟

كان الرجـل المريـض عجـوزا للغايـة وضامـرا للغاية، أنفاسـه ضعيفـة وعينـاه باهتتيـن غائرتيـن، بينمـا كانـت رائحـة شـنيعة تنبعـث مـع أنفاسـه، هـذا رجـل مصـاب بمرحلـة متأخـرة مـن السـرطان بـلا شـك، رجـل أعضـاءه الداخليـة تتـآكل وتتحلـل. رجـل يحتضـر.

نقـل بصـره للرجـال الثـلاث، مـن حولـه، كانـت وجوههـم جامـدة وإن اشـتركت فـي نفـس الضمـور، لاحـظ أن عيـون الثلاثـة بـلا رمـوش، وأن عيونهـم جميعـا جامـدة بلبـدة، تماما كعينـي عبـد النبـي. اقشـعر جلـده وهـو يلحـظ لـون جلدهـم المائـل للزرقـة، لـون غيـر صحـي أبـدا. كانـوا يرمقونـه فـي صمـت تـام. صمـت مخيـف. وجـد نفسـه يعيـد السـؤال وهـو يحـاول التماسـك:

-ماذا يشكو؟

هنـا جاءتـه الإجابـة مـن فـم الطفـل، الـذي قـال لـه بصـوت رتيـب بـارد:

-اهتم به وعالجه يا دكتور.

نظـر إلـى الطفـل فـي دهشـة، وشـعر بشـيء غيـر طبيعـي فيـه هـو الآخـر، أسـلوب حديثـه المتصلـب ذكـره ب عايـدة، هـل تلـك هـي الطريقـة التـي اعتـادوا فـي هـذا المـكان التحـدث بهـا؟ ربمـا!

جاهد كي يبتسم في وجه الطفل، وهو يقول:

- ليس قبل أن تخبروني بقصته المرضية وماذا يشكو؟

أشار الطفل نحو الجسد المسجى في هدوء وأجاب:

-عليك ألا تدعه يموت.

مغالبا نوتره اقترب من المريض، لاحظ وجود سماعة طبية وجهاز ضغط زئبقي على طاولة بجوار فراشه، ارتدى السماعة وبدأ يفحصه، شعر بالنفور من ملمس جلد الرجل البارد. ملمس ذكره بالجثث المحفوظة في الثلاجات.

ورغم خبرته الطويلة إلا أن الأمور كانت واضحة.

نبض ضعيف، ضغط دم منخفض، وأنفاس غير منتظمة، وجسد بارد.

هذا رجل يحتضر.

أراد أن يخبرهم ألا جدوى، لكنه لسبب ما كان يشعر بالخوف منهم. لذا غمغم محاولا ألا ينظر لوجوههم الجامدة قائلا:

-أعتقد أنه بحاجة لبعض المحاليل المغذية لتنشيط دورته الدموية. سأرى إن كان في المكان شيء كهذا.

لم يترك حديثه أي أثر في وجوه الرجال الثلاثة، ظلوا صامتين وهم يرمقون الجسد المسجى في ثبات، لكن

الطفل كالعادة هو الذي أجابه:

-أبقه حيا. إنهما يومان فقط ما يحتاجه، وسوف نأتي لنأخذه في اليوم الثالث. لكن لا تدعه يموت قبلها.

وبغير كلمة غادر الرجلان والطفل المكان، تاركين خلفهم عجوز يموت وطبيب جائر مرعوب.

***

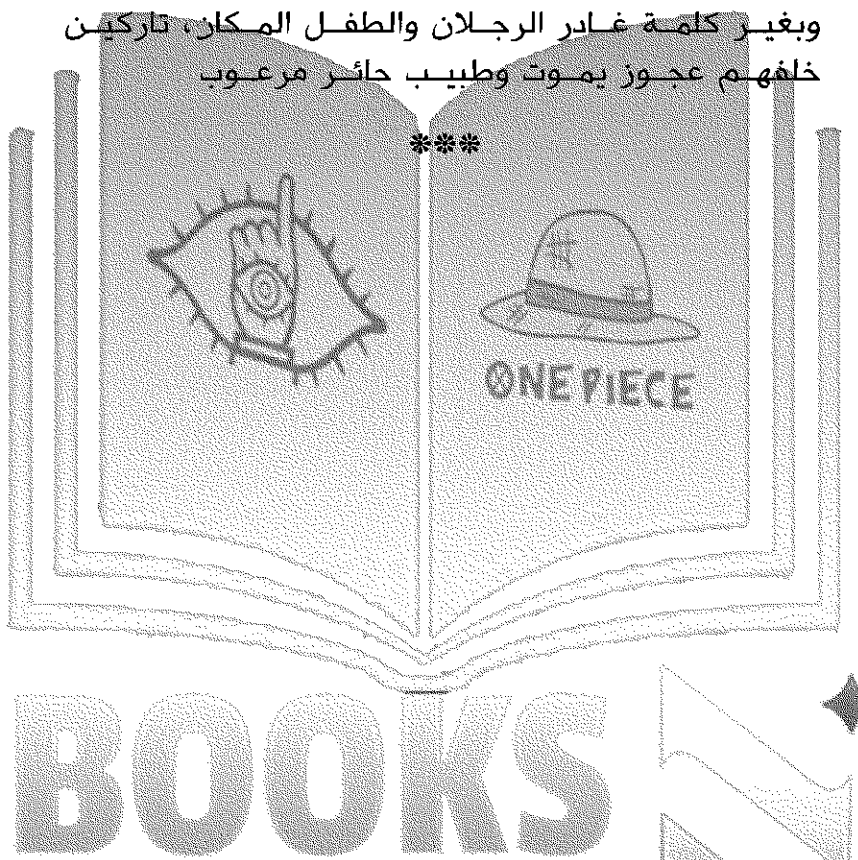

(4)

حاول فتحي تجاهل الرائحة العفنة المنبعثة من العجوز المحتضر بلا جدوى، حتى أنه فشل في العثور على قناة وريدية مرتين، أصابعه كانت ترتجف وهو ما أوعزه لشعوره بالنفور من الرجل. شاهد الدماء المنبثقة في دفقات متقطعة واهنة من ذراع العجوز الضامر جراء محاولاته الفاشلة لإدخال الابرة في أوردة الرجل لضخ بعض المحاليل في جسده.

كانت دماء سوداء لا أثر للون الأحمر بها، دماء بعثت معها المزيد من رائحة التحلل الشنيعة! لم يتحرك عبد النبي من مكانه ولم يفكر في مساعدته. فقط ظل واقفا في ركن الحجرة ممسكا بالمصباح الزيتي في صمت وجمود، دون أن يبدو على وجهه التأفف من الرائحة.

بدا وكأنما اعتاد عليها.

غالب فتحي نفوره واشمئزازه، وقرب نظره من ذراع مريضه الصامت، وهو يتحسسه بأطراف أنامله بحثا عن الوريد. جلد العجوز كان باردا كالموتى، إنه لأعجوبة حقيقية أن يظل هذا العجوز حيا حتى الآن. هذه المرة نجح، وبارتياح كبير راح يراقب السائل في الأنبوب والذي بدأ يتحرك نحو جسد الرجل في سرعة.

انتبه في تلك اللحظة أنه قد صار بمفرده في الغرفة، فقط كان المصباح معلقا في قائم بجوار الحائط، لكن

عبد النبي كان قد اختفى، تحرك نحو باب الغرفة، وأطل برأسه من الباب مطالعا الظلام المطبق على المكان، لم يرى أي أثر لكاتب الوحدة الصامت في أي مكان، فهتف في قوة:

-عبد النبي، هل أنت هناك؟

تردد الصدى بين الجدران برنين عجيب، كان الصدى لحوح، مريب، موجس. وللحظة شك فتحي أن هناك من يردد كلماته من قلب الظلام، لتبدو كصدى لما قاله.

- هناااااك.

مغمورا بالتوتر والترقب، عاد للحجرة ليراقب العجوز، كان وجه العجوز على نفس جموده، وصدره يرتفع وينخفض في حركة ضعيفة، انتهى المحلول الأول فأبدله بمحلول ملحي آخر، وقد خمن أن العجوز يعاني من أعراض جفاف شديد، وأنه قد يحتاج لأكثر من زجاجتين في هذه الليلة، بل وربما لبعض الدماء كذلك. لكن من أين يأتي بأكياس الدماء في مكان ناء كهذا؟

من العجيب أنه وجد مخزونا ضخما من المحاليل في الدولاب المصنوع من الألمونيوم بالغرفة، شعر بالدهشة، فحتى في قلب القاهرة من العسير أن تجد مثل تلك الكمية في مخزن مستشفى كبير. فكل الأدوية والمحاليل في تلك الفترة كانت مخصصة للمجهود الحربي، مخصصة للجيش العظيم الذي تحرك في نهاية شهر مايو مختالا في شوارع القاهرة في حشود لا نهاية

لها، من المدرعات والعربات المجنزرة والدبابات الثقيلة وناقلات الجنود، بينما احتشدت الجماهير في الشوارع وشرفات النوافذ وهي تلقي عليهم الورود والأزهار وتهتف لهم في جنون ونشوة.

هذا جيش التحرير، الجيش الذي سوف يقضي على إسرائيل للأبد كما وعد الزعيم، وكما تعد الإذاعة والتليفزيون وكما تعد أم كلثوم وعبد الحليم حافظ في اناشيدهما وأغانيهما.

لكن الجيش لم يحارب، وانهزم قبل أن تبدأ الحرب. ليس لقلة بأس رجاله، بل لفساد قادته.

كانت هزيمة يونيو مؤلمة، وعادت فلول الجيش بعد يونيو لتعبر نفس الشوارع في انكسار وضعف والجماهير ترمقها في استياء وغضب وسخرية مقيتة.

بالفعل كم كانت هزيمة يونيو مذلة موجعة لعينة.

ونفض رأسه ليطرد تلك الذكريات المخيفة منها، وقد عاد الصداع ليفترس عقله، بينما نبض الألم ثانية في ساقه ليذكره أنه كان هناك. كان في سيناء، وأن تلك الشظية التي سكنت فخذه شاهدة على ذلك.

انتهى المحلول الثاني في نحو الدقائق العشر. ففحص فتحي المريض. لم يبد عليه أثر للتحسن. بدا على نفس جموده. تذكر تحذير الطفل الذي جاء برفقة المريض والرجال.

- أبقه حيا. إنهما يومان فقط ما يحتاجه، وسوف نأتي لنأخذه في اليوم الثالث. لكن لا تدعه يمت قبلها.

ابتسم وهو يستبدل المحلول الثاني بآخر، وهو يغمغم في سره:

-لقد انتهى زمن المعجزات يا فتى، والمعجزة الحقيقة أن تشرق الشمس وهذا العجوز ما زال حيا. لقد فات وقت العلاج منذ وقت طويل لو كنت تدري.

خمن أن الرجل يعاني من أورام سرطانية في مرحلة متقدمة وقد انتشرت الثانويات في كل جسده. كان الرجل بحاجة لفحوصات مختبرية وفحص إشعاعي، وخبير بعلاج مثل تلك الحالات.

كل هذا غير موجود، هنا فقط طبيب شاب حديث التخرج قليل الخبرة، ووحدة صحية لا تعد بالكثير.

رمقه لمرة أخيرة، ثم قرر أن هذا أكثر ما يمكن أن يقدمه له، في مكان كهذا. دثره بغطاء ثقيل ثم صعد لغرفته مصطحبا المصباح الوحيد في المكان معه. لن يفيد الضوء هذا المريض، لكنه كان بحاجة له. يحتاج لأن يرتب أغراضه، يحتاج لأن يخرج علب الأغذية المحفوظة من حقيبته، ففي تلك اللحظة عادت أحشاءه للتقلص مذكرة إياه بالجوع.

في الظلام بدت الوحدة الصحية موحشة للغاية، غمره ذلك الشعور البدائي المبهم بالخوف من الظلام. وما قد

يتوارى فيه. صعد السلم الخشبي وهو يحاول ألا يصدر حذاؤه أي صوت، وكأنما يخشى أن تستيقظ العفاريت والجان لو سمعت صوت خطواته، تماما كما اعتاد أن يفعل وهو صغير، حين كانت مثانته تمتلئ بالبول في منتصف الليل ويرفض أخوه الأكبر الاستيقاظ لمرافقته للحمام.

وقتها لم يكن أمامه إلا أن يعدو من غرفة نومه للحمام عبر الصالة واهنة الضوء، محاذرا أن يصدر عنه أي صوت. كان يخشى أن تستيقظ العفاريت الرابضة خلف الستائر أو داخل الخزانة أو أسفل الكنب الكبير في الصالة مع صوت أقدامه، وكم من مرة أغرق سرواله بالبول وهو يتعجل افراغ المثانة في الحمام حين كان يدب في المكان صوت مفاجئ.

دخل حجرته وأحكم إغلاق بابها من خلفه، مثلما كان يفعل حين يشعر بالخوف وهو صغير. وكأن هذا الباب المغلق سوف يمنع عنه الوحوش والأشباح والعفاريت. وضع المصباح على الطاولة ليرى أن هناك صينية مليئة بالطعام فوق فراشه، وعليها أرز ونصف دجاجة مسلوقة وخضار مطبوخ وخبز وزيتون.

هل جلبها عبد النبي من أجله؟

لكن متى فعل؟

ربما فعلها حين اختفى من أمام الحجرة وهو منهمك في علاج مريضه، كان الجوع يقرصه فنفض تلك الأفكار

من رأسه وانهمك في تناول الطعام.

انتهى من الطعام وأشعل سيجارة وتحرك نحو النافذة وهو يدخن، السماء لا زالت تمطر والرياح تصفر بالخارج وهي تضرب الجدران والأشجار في عنف والظلام بدا في تلك اللحظة بدائي مخيف. جو مخيف مقبض كثر مما عاشه من قبل في الصحراء حين كان في الجيدن، فمهما كانت مخاوفه كان هناك برفقة الجنود الآخرين، أما هنا فهو في بناء مظلم سيعيش فيه لوحده وفي الطابق السفلي منه يرقد عجوز غامض يحتضر، ويا لها من رفقة.

انتهت السيجارة فبدلها بأخرى، كان هذا حين انتبه إلى تلك الأصوات التي تعوي بالخارج، أرهف السمع ليتأكد من تلك الأصوات وسط صخب الرياح والأمطار. وحين دقق النظر انتبه على صف من أشباح حيوانات تحيط بمبنى الوحدة الصحية من خارج السور في نصف دائرة وهي ترفع عقيرتها للسماء وتعوي في وقت واحد.

حاول تعرف كنه تلك الأشباح المتسربلة بالظلام وقلبه يرتجف، هل هي كلاب أم ذئاب؟ أم أنها أشياء أخرى لا يتمنى أن يعرف حقيقتها؟

لا يدري.

أكثر ما أفزعه هو تلك الوقفة المريبة لتلك الحيوانات. شعر وكأنها تستهدف المكان بعوائها. بدا وكأنها لا تهتم بالطقس العاصف الممطر من حولها. ثم ألح على عقله

خاطر غريب. ماذا لو هاجمت تلك الحيوانات المبنى؟

لن تصل إليه حتما. فجدران المبنى كله من الصخر وباب حجرته كما يرى قوى للغاية، ولن يسمح لتلك الحيوانات باختراقه. إنه إذا في مأمن منها.

لكن ماذا عن مريضه بالأسفل؟

تذكر أنه لم يتأكد إن كان باب الوحدة الصحي الخارجي موصدا أم لا، قبل أن يصعد لحجرته. لقد خمن أن عبدالنبي قد أغلقه من خلفه، لكن ماذا لو لم يفعل؟

ماذا لو اقتحمت تلك الحيوانات التي تلمع عيونها في الظلام المكان وهاجمت المريض العاجز ونهشت جسده. فكرة مرعبة، فكر أن من واجبه أن يهبط ليتأكد من إغلاق الباب، لكن دافعا خفيا في عقله دفعه ألا يفعل.

مضت نحو العشر دقائق وهو في مكانه خلف النافذة وهو يراقب أشباح الحيوانات التي ظلت تعوي. وحين ضرب لسان من البرق صفحة السماء المظلمة رأي الأشباح الآخرين المستترين في الظلام خلف أشباح الحيوانات.

أكثر من صف من أشباح رجال ونساء تقف في الظلام والبرد والمطر وهي تحيط بمبنى الوحدة الصحية في جمود. انتفض في عنف وهو لا يدري ما يحدث. من هؤلاء وماذا يفعلون بالخارج.

ومع شعوره بالفزع. كان يشعر أن شيئا شريرا يحدث.

راحت ساقاه ترتعشان، لكنه لم يفارق مكانه، وحين عاد البرق ثانية ليضيء المكان، رأي أن صفوف الأشباح البشرية صارت ملاصقة لصف الحيوانات. وفي وقت واحد راحت الأشباح البشرية تعوي في صوت واحد مخيف. صوت حاد له وقع غير آدمي. تعوي وكأنها ترتد أناشيد وثنية قديمة.

فكر في أن يفتح النافذة وأن يصرخ فيهم أن يبتعدوا، أن يسألهم ماذا يريدون منه. لكنه لم يجرؤ. كان خائفا. كان يرتعش. ثم جاءت منه التفاتة للأسفل حين سطع البرق للمرة الثالثة. وهناك وبداخل الحديقة رأى الرجل المريض واقفا في الظلام ووجهه مصوب للحشود بالخارج. لم يبد على هيئته المرض في تلك اللحظة، وبعيون جاحظة أدرك فتحي أن المريض يعوي هو الأخر ويشارك رفاقه أنشودتهم الغامضة.

ما يحدث كان كابوسا ثقيلا مخيفا. تراجع فتحي لداخل الغرفة، ثم تكوم حول نفسه في الفراش وغطى وجهه بالغطاء الصوفي الخشن وكأن هذا سيبعد عنه شياطين العالم كله، وبدأ جسده ينتفض، مضت نحو ساعة كاملة من الترقب والرعب قبل أن تختفي الأصوات القادمة من الخارج كلها مرة واحدة ليسود المكان صمت رهيب. توقف المطر وسكنت الرياح تماما وتوقف العواء والإنشاد. لكن الفزع رغم هذا لم يفارقه. ظل جسده يرتجف، وعشرات الأوهام المرعبة تمرح في عقله.

أي استقبال لعين هذا تستقبله به تلك البلدة الملعونة،

ومن هؤلاء، ولماذا تجمعوا حول الوحدة الصحية بالذات؟ هل هم سكان أهل البلدة، أم أنهم أشباح موتى؟ وهل أتوا من أجله أم جذبهم للمكان ذلك المريض العجوز المحتضر؟

مهما كانت إجابة تلك الأسئلة فالمكان ملعون، وأخر ما قد يفكر فيه هو ان يستمر فيه، سيرى إن كانت هناك وسيلة ما تبعده عن المكان إلى أي مكان مأهول قريب. تذكر نصيحة السائق العجوز، ناصر البربري، وفي تلك اللحظة تمنى لو كان قد أطاعه وعاد معه للمدينة ثانية.

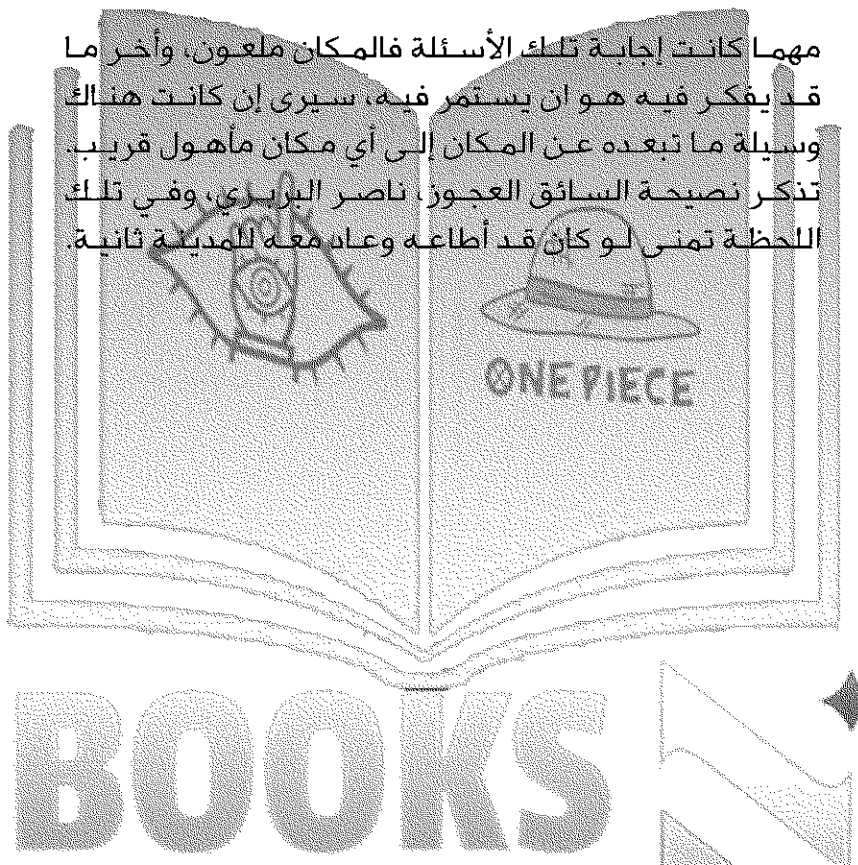

(5)

سقط ضوء الصباح على عينيه فهب من الفراش في فزع مرة واحدة كالملسوع، وهو يتلفت حوله في خوف، ثم سكن خوفه حين وجد أنه مازال بحجرته، وأن الصباح قد أتى ولا خطر هناك. رمق الحجرة التي لم يعتدها بعد، وصينية طعام الأمس التي وضعها في أحد الأركان، ثم عاد ليجلس على طرف فراشه وهو يلهث، وكأنه كان في سباق مميت. ومرة واحدة وكأنما ينتشل من العدم، ظهر الصداع المعتاد الذي راح يمزق خلايا عقله الرمادية.

بدت له أحداث الليلة الماضية في تلك اللحظة كذكرى بعيدة تخص أحد غيره، كابوس مرعب من المستحيل أن يحدث في هذا العالم الواقعي الذي ينتمي له.

تمنى أن يكون محقا، وأن يكون ما رآه خارج المكان حلم تخيله. ثم وكأنما جلبت الذكرى المخيفة الألم، أغمض عينيه في اللحظة نفسها، في وجع وومضة من الصداع التي لا تحتمل تشق خلايا عقله وهي تتحرك من الجانب الأيمن للأيسر. استمرت النوبة لنحو الثانيتين فقط، لكن وككل مرة تصاعد الحمض في حلقه وغثيان عنيف يكتنفه.

لكن خاطرا آخرا طاف بعقله في تلك اللحظة، هل عاد لهلوساته ورؤاه المخيفة؟

حين عاد من الجبهة وقبل إنهاء خدمته في الجيش

بعد إصابته التي سببت له إعاقة دائمة في ساقه، بدأت الاشباح تظهر طوال الوقت أمام عينيه. أشباح رفاق الجبهة. رفاقه الموتى. ابراهيم التهامي. وسعيد المسيري، وغريب الطويل، وجورج ملاك، والرائد محمد شريف، وباقي الرفاق.

كان يراهم حوله في كل مكان، في النهار والليل، يراهم حوله وهو يتناول الطعام، يسيرون بجواره في الشارع، يجلسون حوله في المقهى، ويحيطون بفراشه ويطوفون بجدران حجرته في المساء. ينظرون إليه وهم صامتون عابسون، يقذفوه أحيانا بنظرات كلها لوم، وكأنهم يسألونه لماذا كان الوحيد الذي لم يمت.

كان يراهم وأجسادهم سليمة حينا، وأحيانا أخرى يراهم وأجسادهم ممزقة الأشلاء تسيل منها الدماء. وكانت أكثر اللحظات حين يستيقظ من الكوابيس التي تأتيه كل ليلة ليجد أحد أشباح الرفاق في مواجهة وجهه وهو يراقبه في الظلام في صمت.

الغريب أنه منذ جاء هذه البلدة لم يرى أي من تلك الأشباح، والأكثر غرابة أنه لم ير كابوسا واحدا. حتى مع أحداث الليل الرهيبة نام نوما هادئا.

تناول علبة الدواء وقذف في فمه حبتين من الأسبرين وهو يتمنى ألا تسبب له قرحة أو نزفا بالمعدة وهو يتناولها دون طعام، ثم أشعل سيجارة أخرى، وهو يجول بعينيه في الحجرة، توقفت عيناه عند الكراتين الورقية

فوق الخزانة، والتي خمن أنها تعود لذلك الطبيب الذي كان هنا قبله، بل وربما كانت تخص طبيبا آخرا أقدم من سابقه.

ما الذي تحويه؟

تحرك نحوها وبجهد أنزل الصندوق الورقي الأول، كان مغطى بالغبار الكثيف، فسعل فتحي وهو ينفضه بكف يده.. هذا الغبار يعني حتما أن أحدا لم يقربها كما يبدو منذ شهور. بداخل الصندوق كانت هناك عشرات الكتب والمجلدات، وبعينين متسعتين شغفا وانبهارا راح يخرج أكوام الكتب وهو يطالع أغلفتها في غير تصديق.

كانت القراءة هواياته الوحيدة تقريبا، وقد حرص على جلب عشرات الكتب معه ليتسلى بقراءتها في هذا المكان النائي، وها هو الآن يعثر على كنز مماثل. كانت في أغلبها روايات لكبار الكتاب، عودة الروح لتوفيق الحكيم، خان الخليلي لنجيب محفوظ، الأيام لطه حسين، والكثير من كتب العقاد والكثير من أعداد مجلة الهلال. نسى الوقت وهو يخرج كل الكتب من الكرتونة، وينظفها في حرص من الغبار، وحين انتهى كانت ملابسه متربة للغاية، وقد رص الكتب بجوار الجدار واحصاها فكانت نحو سبعين كتابا ورواية غير أعداد المجلة.

كنز حقيقي.

رفع رأسه نحو الخزانة ونظر للصندوقين الباقيين وهو يمني نفسه بالمزيد من الكتب داخلها، وفكر في إنزال

الصناديق والنظر إلى ما داخلها، لكنه نظر لساعته التي أشارت لنحو العاشرة، فقرر أن يؤجل هذا لفترة ما بعد الظهيرة. عليه أن يهبط للطابق السفلي ليرى إن كان هناك مرضى بانتظاره. ثم تذكر مريض الأمس. فابتلع ريقه في قلق وهو يتمنى لو كان بإمكانه تجاهله. لكن هذا كان مستحيلا. ماذا لو ازداد المرض حدة وكان بحاجة إليه. من واجبه أن يراه، حتى لو كانت رائحته تزعجه، أو كان منظره يخيفه.

بدل ملابسه وفتح باب الحجرة ليجد صينية طعام أخرى تحوي بعض قطع الجبن والخبز الطازج والبيض المسلوق. ابتسم في تلذذ مستمتعا بالطعام الذي لم يتعب في تجهيزه، وراح يتساءل وهو يتناوله، هل يدوم مثل هذا التدليل ويجلبون له الطعام في كل يوم، أم أنها تلك الأيام الأولى فقط وأن عليه بعدها أن يعد طعامه بنفسه.

انتهى من تناول الإفطار وبدل ملابسه ثم هبط.

كان المكان في الطابق السفلي صامتا كئيبا، مر بالحجرات المغلقة فلم ير أي أحد، لا مرضى ولا عايدة ولا عبد النبي، وما أن اقترب من حجرة الملاحظة حتى استقبلته الرائحة العفنة مرة أخرى لتنفي أن ما حدث بالليل كان وهما أو حلما.

اتجه بتوتر نحوها ليرى المريض المحتضر. المريض الذي خرج إلى العراء في الظلام حيث العاصفة والمطر

وراح يشارك رفاقه عواءهم الغريب.

كانت عايدة هناك. تنظف الغرفة، بينما المريض على الفراش ساكن كالموتى، فقط تلك الحركة الخفيفة من صدره هي ما تشير لكونه لازال حيا. متوترا من ذكرى الليل تطلع إليه فتحي من بعيد. شعر بالنفور منه وزادت تلك الرائحة المنبعثة من جسده من نفوره. نظر إلى عايدة التي لم تلتفت إليه، وقال:

-صباح الخير.

لم ترد. فقط هزت رأسها بإيماءة خفيفة. بدت وكأنها لا تعبأ بوجوده.

-كيف حاله؟

سألها وهو يتحسس نبض ذراعه الايمن.

-يمكنك أن تخبرني، إنه لا يتحدث ولا يبدو أنه يشعر بما يدور حوله أو حتى أين يكون.

-لقد جاءوا به بالأمس، حقنته ببعض المحاليل المغذية، تمنيت وقتها لو أخبر ذويه أن الأمل ضعيف لكنهم تركوه وذهبوا.

-سيعودون له مرة أخرى.

قالتها باقتضاب، وضع السماعات على صدره وراح يصغي لصوت الدقات الضعيفة، ثم قال:

- هل تعرفين من يكون؟

- إنه أحد سكان البلدة، ظننت أن هذا واضحا يا دكتور.

- وأنت من البلدة ولهذا أتوقع أنك تعلمين من يكون. أليس كذلك؟

رمقته في صمت، رأي بعض اللامبالاة في عينيها ممزوجة بمقت غريب، هذه المرأة لا ترحب بوجوده. لكنها قالت في النهاية.

- اسمه الحاج جمعة وينادونه بـ «أبي خالد»، إنه واحد من الأعيان ولدية الكثير من مزارع التين وممتلكات الماشية والأغنام.

- لكن حالته متأخرة للغاية، في الواقع إنه يحتضر.

هذه المرة التفت نحوه، ولدهشته رأي بعض التوتر ولمحة من الخوف تعكر صفو وجهها الجامد، اختلجت شفتاها وبدا وكأنها تحاول قول شيء ما، ثم سرعان ما تمنع نفسها. لكنها قالت في النهاية بصوت مبحوح:

- من الأفضل ألا تدعه للموت يا دكتور.

- هل هذا تهديد؟

- لماذا تعتقد هذا. قد تكون نصيحة، والآن دعني أواصل عملي.

قالتها وغادرت الغرفة كلها وكأنها تهرب منه، راح لبعض

الوقت يفكر في قولها، نفس التهديد الذي أطلقه الصبي الصغير:

- لا تدعه يموت

وكأن الأمر في يده، وكأن الطب يصنع المعجزات ويحيي الموتى. نظر للعجوز المحتضر، ولاحظ الضمور الهائل في ذراعيه وساقيه، ما تبقى فيهما لا يزيد عن طبقة من الجلد المترهل اليابس وأسفلها العظام. في أي وقت آخر كان ليقسم أن مريضا كهذا لن يقدر على تحريك إصبع واحد في جسده، لكنه رآه ليلة أمس وهو يقف على قدميه في ثبات رغم الريح والمطر، بل وقد كان يعوي كذلك.

كتم أنفاسه وهو ينحني نحوه ليمنع الرائحة الخانقة المنبعثة من الجسد المتآكل من النفاذ لأنفه، حرك الذراعين فكانا متيبسين للغاية، جرب تحريك القدمين فلم تستجيبا له، لقد ضمرت العضلات وذابت الأربطة وتخشبت تماما، هذا رجل قعيد منذ زمن طويل. إذا لا يوجد تفسير لرؤيته بالأمس إلا شيئين:

الأول أنه كان يتوهم، وهذا محتمل.

والثاني كان خاطرا مخيفا. هذا الرجل ممسوس.

اقشعر جلده، ووجد نفسه يقترب من رأس الرجل ويهمس:

-هل يمكنك سماعي؟ هل يمكنك أن تخبرني بما

تشعر به؟

ثم مضت لحظة من الترقب، وجاءت الإجابة. لم يفتح الرجل فمه ليجيب، بل فتح عينيه معا مرة و حدة.

وصرخ فتحي في فزع حقيقي وهو يتراجع للخلف ليصطدم بحامل المحاليل ويسقط معه.

فبدلا من أن يرى عيني الرجل كان هناك تجويفان مظلمان ممتلئان بالدود الحي!

***

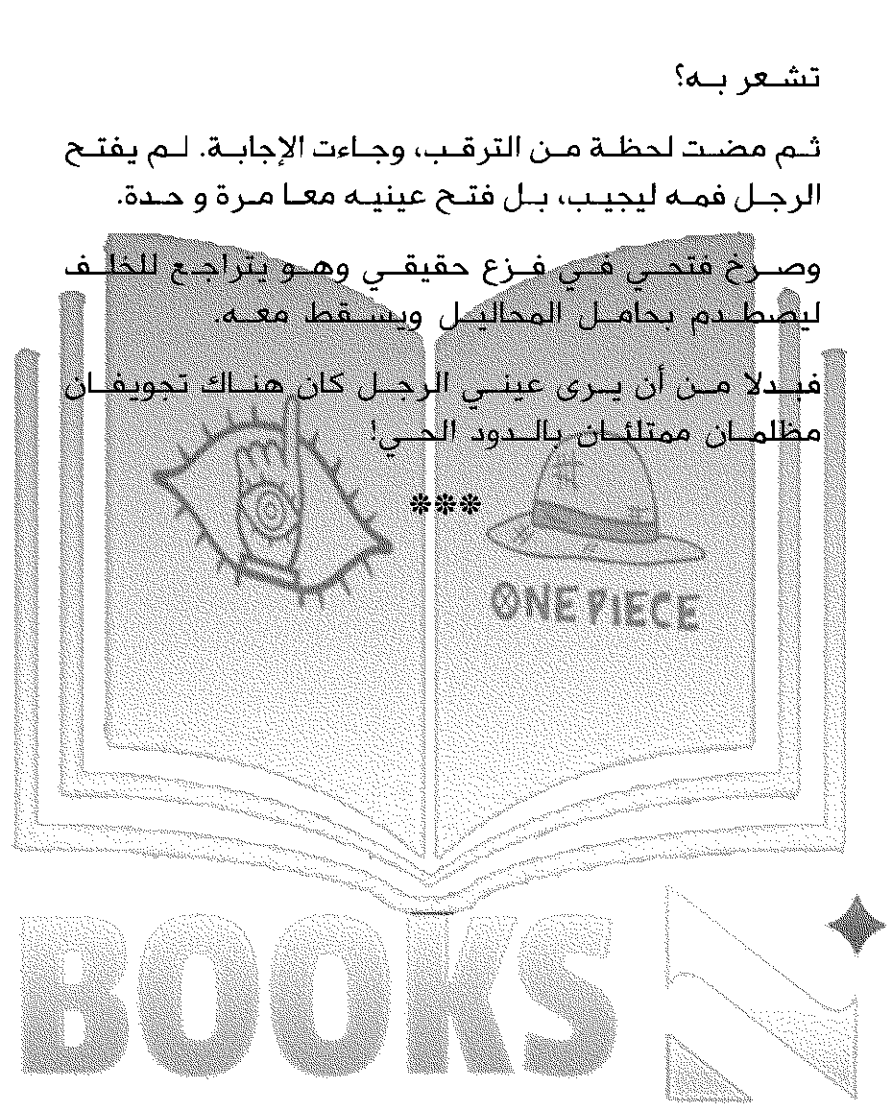

(6)

جذبت صرخته عايدة التي أتت للغرفة مسرعة، لكنها لم تكن بمفردها، كانت هناك امرأة أخرى خلفها لم ينتبه لها فتحي رغم أنها قالت:

-ما الذي يحدث هنا.

لم ينتبه لها فتحي في البداية، وأشار نحو العجوز وهو يصرخ:

-عيناه، هناك الكثير من الدود بداخلهما، هذا بشع. بشع للغاية.

بينما تحركت عايدة في ثبات نحو فراش الرجل وانحنت نحوه، كاد فتحي أن يصرخ فيها ألا تقترب منه أو تلمسه، لكنها فتحت مقلتيه ونظرت فيهما للحظة قبل أن تستدير نحوه وتقول:

-لا وجود للدود ولا أي شيء آخر غريب. عيناه في مكانهما يا دكتور. ربما توهمت هذا؟

-كلا، كانتا متآكلتين وفيهما الدود.

-يمكنك أن ترى بنفسك طالما لا تصدق.

نظر فتحي حوله في اضطراب، بينما انحنت عايدة نحو حامل المحاليل لترفعه عن الأرض، وجد يدا رقيقة رشيقة تجذبه من ذراعه وتعاونه على النهوض. رمقها

في حيرة قبل أن ينتبه لها. ورغم توتره اتسعت عيناه في ذهول، كانت شابة غير مصرية. أوربية أو أمريكية كما يبدو جليا في ملامحها. قوام رفيع وعيون زرقاء وشعر ذهبي أشقر. وابتسامة عذبة تكشف عن صفين من أسنان بضيدة لامعة كاللؤلؤ.

مدت ذراعها، نحوه وكأنها ترحب به وقالت:

- اسمي سارة بيندكت، ولابد أنك الطبيب الجديد هنا.

قالتها بعربية سليمة وإن شابتها لكنة غريبة، كانت تتحدث كالأجانب الذين عاشوا في البلد أعوام طويلة وتعلموا العربية فيها. تطلع فتحي إلى الذراع الممتدة نحوه في حيرة وكأنه لا يعرف كيف يجيب عليها، فاتسعت ابتسامتها العذبة وهي تقول:

-ألن ترحب بي؟

وكأنما جذبته كلماتها من حيرته فأسرع يصافحها وهو يقول:

-أنا الدكتور فتحي عبد الوهاب، طبيب الوحدة الجديد.

قبضت على كفه بقوة وهي تقول:

-والآن أخبرني يا دكتور عبد الوهاب، ما الذي أفزعك. لقد كنت تصرخ بينما كنت أدخل.

كانت تناديه بنفس الطريقة الغريبة، باسم ابيه أو عائلته كما تعتقد. ابتلع ريقه وقد عاد منظر المقلتين

الفارغتين الممتلئتين بالدود اللزج يملأ مخيلته، فسحب كفه من يدها بتوتر واتجه نحو العجوز الراقد وبيد مرتعشة فتح مقتليه، هذه المرة لم ير غير عينين باهتتين بلا بريق وقد غشيتهما سحابة بيضاء. لم يكن هناك فجوات فارغة ولا دود يمرح فيها. فهز رأسه في قوة وكأنما يفرغ توتره ثم قال:

-لا شيء. يبدو أنني متعب بعض الشيء.

كانت عايدة تقف في ركن الحجرة منتصبة في جمود كتمثال وثني قديم، بينما تحركت سارة نحو الفراش وانحنت نحو العجوز المحتضر دون أن يبدو عليها التأفف من رائحته الخانقة، وراحت تمسد وجنتيه وشعره بأناملها الرقيقة وهي تردد:

-يا للمسكين البائس، أنت لا تعرفه يا دكتور. إنه رجل صالح، جمعة العجوز الطيب. طالما دعاني في بيته، وطالما قص لي حكايات المكان وتاريخه. لكن المرض اللعين أتى بغته وسرعان ما فتك بجسده كما ترى. أنا هنا لزيارته، أنا هنا لأصلي من أجله.

راقبها فتحي في دهشة وقد ركعت بجوار الفراش، وضمت كفيها أمام وجهها وأغمضت عينيها وراحت تمتم بشفتيها صلاة غامضة. مضت نحو الدقيقة من الصمت المطبق، راقبها فتحي في دهشة استحالت لاضطراب عنيف حين انتبه لنظرات عايدة الزائغة التي ترمق بها سارة. رأى خوف مبهم يلوح في خلجاتها. خوف شديد أو

شيء أخر. كره كبير!

انتهت سارة ثم نهضت وانحنت نحو جبهة جمعة وقبلتها ببساطة وقالت:

- ستكون بخير يا جمعة. أعدك بهذا.

وكالمعجزة فتح الرجل المحتضر عينيه وقد عاد لهما بعض البريق، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة شاحبة، ابتسامة جعلت قلب فتحي يثب في صدره متوترا. بينما التفتت سارة إلى فتحي وقالت:

- افعل كل شيء تقدر عليه لتحافظ على حياته يا دكتور عبد الوهاب، افعلها من أجلي أرجوك. حافظ على حياته ليومين آخرين فقط.

وجد نفسه يقول في توجس وهو يرمق وجه الرجل الذي أغلق عينيه مرة أخرى وقد تلاشت أثر الابتسامة من وجهه:

-ولماذا ليومين فقط؟ ماذا قد يحدث بعدهما؟

قالها وقد تذكر حديث الصبي. فاقتربت منه حتى كادت أن تلتصق به وقد بدد عطرها الحلو الكثير من رائحة الرجل المحتضر وقالت:

-لم أقصد مدة محددة، يبدو أنني أسأت التعبير، فقط حافظ عليه لأطول وقت ممكن.

يحافظ على ماذا؟ رجل محتضر؟!

بدت اجابتها غامضة ومريبة، ورغم عذوبتها وابتسامتها الفاتنة شعر ببعض التوتر منها، خاصة وقد ظلت عايدة تنظر إليها بنفس التوتر. فقال في اقتضاب وهو يتراجع للخلف:

- سأحاول.

ثم نظر إلى عايدة وأمرها أن تحقنه بالمزيد من المحاليل المغذية، وبينما بدأت عايدة في تنفيذ أمره قالت سارة:

- ما رأيك في نزهة قصيرة بالخارج؟ الجو لطيف والسماء لم تعاود الأمطار بعد. أنا واثقة من أن تلك النزهة ستروق لك.

شيء ما في عقله الباطن كان يدعوه لئلا يستجيب لدعوتها، لكنه تجاهل هذا التحذير الداخلي وقد رأي أنه لا خطر هناك من التنزه مع شابة فاتنة كهذه. فابتسم لها وهو يقول:

-بالطبع يسعدني مرافقتك.

تأبطت ذراعه في بساطة وغادرا الغرفة، لكن نوبة من الصداع الرهيب، فتكت برأسه مع أولى خطواته خارج الغرفة. جاءت نوبة الصداع كعادتها بغتة بلا نذير، جاءت كصاعقة من البرق برزت بغتة في سماء صيف صاف. وقع على ركبتيه وهو يحيط رأسه بذراعيه في توجع وقد أغمض عينيه بقوة، وهو يردد:

-آآآه. رأسي. يا للصداع اللعين.

انحنت سارة نحوه وقالت وهي تبعد كفيه في اشفاق:

- يا لك من مسكين. إنك تتألم.

ثم أحاطت جانبي رأسه بكفيها وضغطت بأناملها بقوة وهو تكمل:

دعني أساعدك.

أغمضت عينيها في جمود وشعر فتحي بقوة أناملها الكبيرة وهي تحيط برأسه. مضت بضع ثوان قبل أن تبعد سارة كفيها عن رأسه وسمعها تقول:

- والآن أخبرني، هل تشعر بتحسن؟

فتح عينيه وقد شعر بتحسن حقيقي، كان الصداع قد زال بالفعل. تلاشى تماما بغتة كما أتي بغتة، ورغم الإعياء الذي يشعر به نهض ثانية وقال لها في امتنان ممتزج بالدهشة:

-هذا أفضل، أشكرك. لكن كيف فعلتي هذا؟

كان يشعر بالريبة في الواقع، إنه طبيب وهو خير من يعلم أن الألم لا يتلاشى مرة واحدة هكذا. إنها لم تفعل شيئا غير الضغط الشديد على جانبي رأسه، وهذا قد يقلل الألم بالفعل، لكنه ليس كافيا أبدا لينهي نوبة صداع عنيف كالتي هاجمته منذ قليل.

اجابته سارة في بساطة:

- حيلة قديمة تعلمتها من صديقة صينية. إنها تدعى «مي تونج» وكانت تتحدث طوال الوقت عن الإبر الصينية والمسارات العصبية التي تتحكم بالألم والطب البديل، وقتها كنت لا زلت مراهقة يائسة تعاني من يأس الصداع النصفي الذي لم تنجح العقاقير في تحجيمه، لكن «تشي يانج» نجحت في علاجي، بل وعلمتني كيف أساعد الآخرين.

-هذا مثير!

قالها فتحي في شك، كانا يغادران مبنى الوحدة الصحية في تلك اللحظة حين وجد فتحي نفسه في مواجهة اثنين من الحيوانات الضخمة يرمقانه في تحفز وقد برزت أنيابهما الطويلة من شدقيهما وراحا يزومان في شر.

شهق فتحي في توتر، وتراجع للخلف في ذعر، بينما ضحكت سارة وهي تقول:

-كلا يا فتحي. تقدم ولا تخف، إنهما أليفان ولا يؤذيان أحد. هل ترى!

قالتها وهي تداعب رأسي الحيوانين ورقبتيهما. كانا كلبين. أدرك فتحي هذا من المرة الثانية، لكنهما كانا أضخم كلبين رآهما في حياته كلها، كان ارتفاعهما يزيد عن المتر ونصف، وكان نوعهما غريب عليه وهو الذي لا يعرف من الكلاب غير تلك البلدية البائسة أو البوليسية السوداء الشرسة.

ظل جامدا بمكانه فوجد سارة تتجه إليه وتجذبه من ذراعه نحو الكلبين، لتشجعه على الاقتراب منهما. وهي تضحك وتقول:

- تقدم يا دكتور ولا تشعرهما بخوفك، ألا تعلم أنهما يشمان الخوف، وأن هذا يوتر الكلاب ويزيد من شراستها، خذ نفسا عميقا وحاول أن تربت على عنقهما ليطمئنا إليك ويعتادا عليك.

وجد فتحي نفسه في مواجهة الكلبين ولا يفصله عنهما غير مسافة لا تتعدى النصف متر، كانا يرمقانه في تحفز لا شك فيه، وكأنما يحذرانه:

«سنمزقك أيها الأحمق لو استهنت بنا، فقط انتظر حتى تبتعد صديقتنا سارة، لترى ما سوف نفعله بما يتبقى من جسدك.»

كان يكره الكلاب في الواقع، ويخشاها كالجحيم، وهو الذي يذكر عدد لا يحصى من مطارداتها له في الحارات والأزقة حتى زمن قريب. لكنه وأمام نظرات سارة المنتظرة في صبر وجد نفسه يمد ذراعه ويربت على جانبي وجه الكلب الأقرب، ثم سمع سارة تهمس محذرة:

- ليس وجه الكلاب يا دكتور، تؤمن الكلاب أنك بهذا تتوعدها بالشر ولهذا تهاجمك على الفور، فقط اربت فوق رأس الكلب أو رقبته.

فعل كما أمرته وقلبه ينبض في سرعة. هل تعرف

الكلاب تلك المعلومة حقا التي أخبرته بها سارة ولن تهاجمه كما يحدث له دوما. قبل اليوم كان المستحيل أن يقرب كلبا أو يلمسه، كان يخاف الكلاب بجنون، ولما لا وشوارع شبرا شاهدة على عشرات المرات التي طاردته فيها كلاب ضالة. مطاردات كلفته جروح كثيرة وتعاطي مصل السعار مرتين.

فعل كما أمرته سارة وربت على رقبتي الكلبين بوجه شاحب وصدر يلهث، فقالت سارة في سعادة:

- هل رأيت كم أنهما لطيفين، هذا اسمه تومي وذاك ريتشي. لقد اصطحبتهما معي حين أتيت إلى هنا، ولقد كلفني هذا ثروة حقيقية، لكنني دفعتها عن طيب خاطر لأني لا أحتمل الحياة من غيرهما.

كان يشعر بالإعياء في تلك اللحظة، وبالكاد كانت قدمه المصابة تقوى على حمله، لقد أنهكه كل ما مر به، فقال في ضعف:

-معذرة يا سارة، لكن هل يمكننا تأجيل النزهة لوقت آخر، أشعر ببعض الإرهاق.

-هل أنت بخير.

-إنها نوبة الصداع، دوما أشعر بمثل هذا التعب حين تنتهي.

ابتسمت في بساطة وهي تمط شفتيها وتقول:

-حسنا، لنفعلها في الغد، سأكون هنا في مثل هذا الوقت. فقط أتمنى ألا تمطر السماء في الغد. وداعا.

ودون كلمة أخرى استدارت وقد سبقها الكلبان وراحت تبتعد.

***

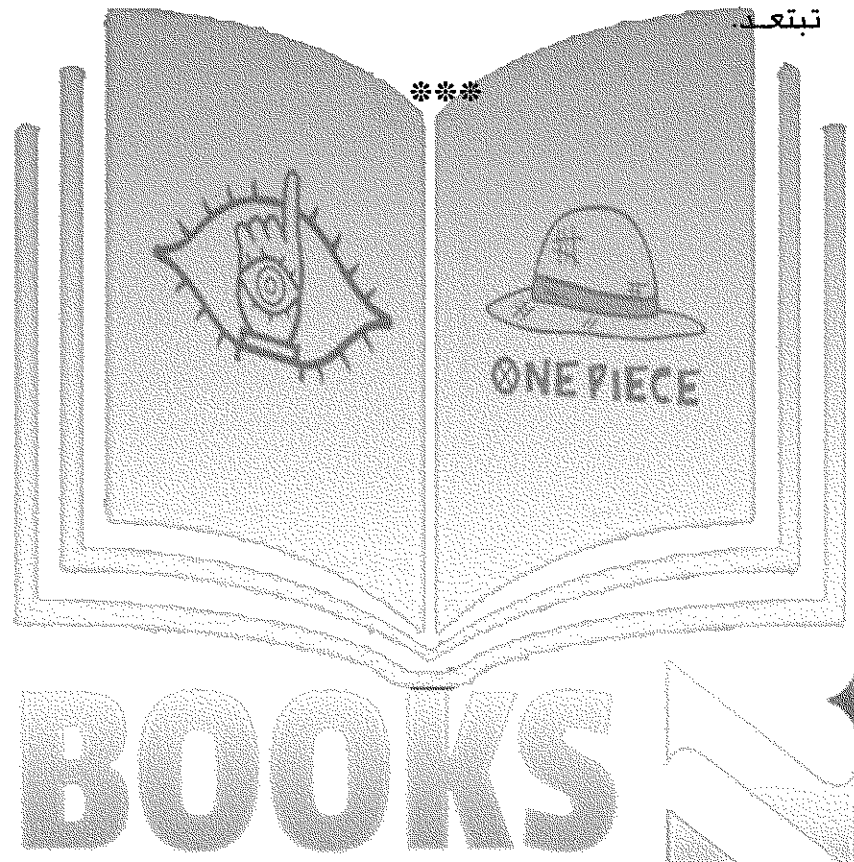

(7)

كان يشعر بإعياء حقيقي في تلك اللحظة، ورغم أن الصداع اللعين قد غاب تماما عن رأسه بعد أن قامت ساره بعلاجه بطريقتها الغريبة، إلا أن الألم في قدمه العرجاء كان قد بلغ الذروة، وكأنما انتقل الألم من رأسه إلى قدمه. راح يعرج في مشيته وعقله مشغول تماما ب «سارة بيندكت».

من تلك الأجنبية وما الذي تفعله في تلك البلدة المجهولة الموجودة في قلب الصحراء، وأخيرا لماذا يشعر بشيء من عدم الراحة معها، كان يلهث حين بلغ نهاية الرواق، وهناك وأمام المعمل كانت عايدة تراقبه في جمود وصمت. وبدا وكأنها تتساءل، لماذا عدت مسرعا ولم تتنزه معها كما أرادت، لكنها كعادتها احتفظت بجمودها ولم تسأل، لكنه هو من سألها، وقال وقد توقف أمامها:

-من تلك المرأة يا عايدة، وما هي حكايتها؟

لاحت ابتسامة ساخرة خفيفة على شفتيها، وأجابت:

-لو سألتها لأخبرتك. جرب وستخبرك بكل شيء.

-لكني أسألك أنت.

-وما شأني بها يا دكتور، أنا أعمل هنا كممرضة وليس كمخبر سري، لو كان هناك ما يهمك بالنسبة للعمل فأنا على استعداد لأي سؤال، لكن لا تسألني عن

أي شيء آخر.

كانت جافة، باردة، أدرك أنها لن تخبره بشيء، لكنه وأمام اسلوبها الفظ معه فكر في أن يسألها السؤال المهم، لماذا تعامله بمثل هذا الجفاء الغير مبرر، لكنه أحجم في اللحظة الأخيرة، وابتلع سؤاله مع ريقه ثم قال:

-أنا في حجرتي لو جاء أحد المرضى، كل ما عليك طرق الباب وسأهبط على الفور.

-يمكنك أن تخلد للراحة كما تشاء يا دكتور، لن يأت أحد قبل الليل.

بصعوبة صعد الدرج وفي حجرته رقد على الفراش وهو يلهث، كطبيب لم يكن هناك تفسير طبي لمثل هذا الإرهاق واللهاث، لقد استيقظ معافا كجرس، وحين ذهب لفحص مريضه كان بكامل عافيته، ثم تذكر أن هذا الإعياء حدث بعد أن عالجته سارة بطريقتها الغامضة من الصداع، وجد نفسه يرقد على الفراش وهو يغمغم:

-ما الذي فعلته بي تلك المرأة الغامضة؟

وعلى الفور غاب في نوم عميق، ثم رأي فاتن، كانت تعدو في صحراء مظلمة مذعورة تصرخ في جنون، ومن حولها تنفجر قذائف الطائرات والمدرعات، بينما وجد نفسه مقيدا في رمال الصحراء في زيه العسكري بخيوط خفيه وهو يراقبها في عجز. ومن قلب السماء

المظلمة ظهرت طائرة هيلوكوبتر إسرائيلية ونجمة داوود تزين هيكلها، وظهر من باباها جندي إسرائيلي شاب، كان يرتدي نظارة شمسية سوداء رغم الظلام، كان وجهه يبتسم في تلذذ، وكان يمسك في يده بندقية آلية ويصوبها نحو فاتن. حاول أن يتحرك نحوها ليحميها، فلم تطاوعه قدماه، حاول أن يصرخ فيها محذرا، أو يناديها باسمها فلم تخرج من فمه غير همهمات مخنوقة غير واضحة.

أصابتها الرصاصات في ظهرها فطار جسدها الدقيق في الهواء للحظة، ثم سقط، أشار لها الجندي الإسرائيلي بأصبعيه بعلامة النصر. ثم ارتفعت الطائرة. انقشع الظلام فرأى سارة تقف أمام جسد فاتن الدامي، بينما وجد جسده قد انتقل مرة واحدة ليكون في الناحية الأخرى بجوار فاتن. ابتسمت سارة ابتسامة غامضة وهي تقول:

-لقد انتهت ولا حاجة بها لهذا الجسد الممزق. ألا توافقني.

ثم ظهر كلبا سارة من خلفها، تومي وريتشي العظيمان. في تلك اللحظة كانا أضخم بكثير مما رآهما في الحقيقة. حتى أن جسد سارة بدا إلى جوارهما كطفلة صغيرة. كانت عيونهما تتوهج ببريق ناري أحمر، وعلم فتحي في تلك اللحظة ما سوف يحدث، سوف يلتهمان جسد خطيبته السابقة.

شاعرا بالخوف من أن ينتبه الكلبان له كتم أنفاسه في عجز، بينما اندفع الكلبان نحو الجسد المصاب وراحا يمزقانه بأنيابهما. العجيب أن فاتن كانت في تلك اللحظة حية، الأكثر غرابة أنها راحت تقهقه في نشوة وكأن ما يحدث يروق لها، وانقشع الظلام ليظهر الرفاق القدامى الموتى، رفاق الكتيبة الذين استشهدوا جميعا في الحرب، كانوا يشيرون لجسد فاتن في سعادة وهم يضحكون ويصفقون رغم أجسادهم الممزقة هي الأخرى.

هذا جنون، كابوس لعين يجب أن أفيق منه، فقط لو أنجح في الصراخ أو فتح أحد جفني، راح يفكر في جنون.

في اللحظة التالية شعر أن هناك من يدق على كتفه من الخلف، وحين استدار وجد نفسه في مواجهة، العجوز المحتضر. كان يقف خلفه وهو يضحك هو الآخر فاغرا فما مظلما كقبر ملعون، ويشير إلى فاتن في مرح. وبينما تراجع فتحي مبتعدا عنه في خوف حقيقي، فتح العجوز عينيه. كانتا سوداوين كأغوار بئر مظلم، وكان الدود يملأهما. تماما مثلما رآهما في النهار.

هذه المرة أفلتت الصرخة من فمه.

ثم استيقظ.

كان الظلام قد حل في الغرفة. راح يلهث فوق الفراش في ذعر حقيقي والحلم المخيف يقبض على روحه. ورغم برودة المكان كان فمه جاف كأرض أصابها الجفاف. بينما غمر العرق البارد جبهته. استغرق الأمر بضع دقائق

حتى هدأ روعه، كانت قطرات المطر تضرب النافذة في تلك اللحظة بقوة فعلم أنها عادت تمطر.

بحث عن علبة ثقابه فوق الكومود المجاور للفراش وأشعل أحد أعواده ونظر إلى ساعة يده، كانت تشير إلى نحو العاشرة مساء، يا اللّه، ما كل هذا النوم؟!

هل نام كل تلك الساعات التي تزيد على العشر؟ شرب بعض الماء، ثم أشعل سيجارة، وراح يرشفها ببطء في الظلام وهو يستعيد ما رآه في الحلم، لماذا يحلم بـ «فاتن» الآن؟ ألم يهرب من تلك الحكاية اللعينة هي الأخرى. ألم تكن فاتن واحدة من الأسباب التي دفعته للهرب إلى الصحراء. كانت فاتن خطيبته وجارته وحبيبته قبل أي شيء. وعدته وهو يرحل الى جبهة القتال أن تنتظره حتى نهاية العمر، طالبته بالنصر، وحين عاد من المعركة مكسورا معاقا، لم تنتظر طويلا لتخبره أنها لا ترغب في إتمام الزواج وخاصة مع وجود عريس سليم البدن يعمل بالتجارة جلبته لها أمها.

أشعل المصباح الزيتي، ثم فتح باب الحجرة، وكالعادة وجد صينية طعام جديدة مغطاة بسلة من الخوص. لابد أن عبد النبي هو من وضعها مثلما حدث بالأمس. كاد يعود بها للداخل ويتناول ما بها حين تناهت لأذنه أصوات خافتة تأتي من حجرات الوحدة الصحية بالطابق الأرضي، أرهف سمعه فلم يميز غير الإيقاع الرتيب للصوت. وكأنما هناك من ينشد أنشودة قديمة غامضة.

عاد إليه توجسه وهو يفكر في مصدر هذا الصوت.

ألح عليه عقله الباطن أن يتجاهل ما سمعه وأن يعود إلى حجرته ويغلق خلفها بابها.

متجاهلا تلك التحذيرات الملحة، ارتدي خفه وحمل المصباح وهبط الدرج. كان الصوت بالأسفل أكثر قوة الآن. كانت عبارة عن تراتيل غامضة غير مفهومة، وإن أشعرته بالرعب، وخاصة وقد تذكر أحداث الليلة الماضية.

فكر أكثر من مرة في تجاهل كل ما يدور وأن يهرع عائدا لحجرته ويختبأ فيها. لكن عناده القديم دفعه لمواصلة السير. تسلل الضوء عبر الباب المفتوح لحجرة ملاحظة المرضى، حيث يوجد مريضه الوحيد، ومع الضوء انزلقت الرائحة الخانقة أكثر قوة من أي وقت مضى. صارت التراتيل هادرة في تلك اللحظة. وبقدمين لينتين كعشب ندي، وقلب واجف، تسلل فتحي ثم وقف مرة واحدة أمام باب الحجرة ليرى ما يدور داخلها.

كان الرجلان اللذان أتيا بالمريض يقفان في الناحية اليسرى من فراش العجوز المريض، وفي الناحية اليمنى كان هناك الصبي الصغير. كانوا ينشدون بقوة تراتيلهم الغامضة في صوت واحد وقد مدوا أذرعهم أمامهم على ارتفاع نحو النصف متر من جسد العجوز. كان كل شيء فيهم مخيف، وغير أدمي بالمرة. لكن هذا لم يكن السبب الذي أفزع فتحي في الحقيقة.

لقد كان القرد.

كان هناك قرد حالك السواد في حجم الطفل الصغير يقف فوق جسد العجوز المحتضر وقد أولى ظهره للباب. كان سواد جسده مخيفا، فلم يتمالك فتحي نفسه وصرخ. هنا التفت الجميع نحوه وصمتت التراتيل مرة واحدة. لكن فتحي لم يرى غير وجه القرد الغاضب الذي استدار برأسه ليراه، وجه مريع، أبشع ما فيه عيناه الصفراوان البراقتان والمشقوقتان بالطول كأعين الثعابين.

تراجع فتحي للظلام بالخلف ثم تعثر بشيء غامض وسقط فسقط المصباح معه وتطوح بعيدا فانطفأ نوره، تفاجأ بالصبي فوق رأسه. وهو يرمقه بعينيه السوداوين في ثبات. كان يشعر بالرعب منه، لكن الصبي قال بصوت هادئ:

-هل أنت بخير يا دكتور؟

-ماذا تفعلون هنا وما هذا القرد؟

- قرد؟! لا يوجد أي قرود هنا. إنه نحن فقط.

وثب فتحي من فوق الأرض متجاهلا اليد التي مدها الصبي نحوه ونظر إلى داخل الحجرة في غضب ممتزج بالرعب، لكن الغريب أن القرد لم يعد موجودا هناك. فقط الرجلان الواقفان في جمود غريب حول صاحبهم المريض وقد نظروا إليه بنفس الثبات. بينما سمع الصبي من خلفه يقول:

-هل رأيت؟ فقط نحن هاهنا؟

في تشكك وبعينين زائغتين همس فتحي:

-وما تلك الترانيم الغامضة التي كنتم ترددونها .

- إنها أغنية بدوية قديمة كان يحبها.

-وكيف دخلتم إلى هنا.

-إنه عبد النبي، لكنه قد ذهب الآن.

ثم أشار الصبي إلى المريض وقال:

-إرعاه جيدا يا دكتور ولا تدعه يموت، إنهما ليلتان فقط فلا تنس.

ثم استدار مع الرجلين وغادروا المكان بخطوات آلية، تاركين فتحي مع مريضهم المحتضر وهو ينتفض في رعب.

***

ONE PIECE
BOOKS

(8)

انتظر حتى اطمأن إلى ابتعاد الجميع ثم أحكم إغلاق الباب الرئيسي للوحدة الصحية. لا يرغب أن يستيقظ في منتصف الليل ليجد أن هناك أغراب آخرون داخل الوحدة. يكفيه ضيف واحد في الواقع، مريضه العجوز المحتضر.

وإذ تذكره استيقظ بداخله نداء الواجب. عليه أن يعاود فحصه مرة أخرى ليرى هل من جديد في حالته. عاد لغرفة الملاحظة وراح يرمقها في حذر وعيناه تبحثان عن شيء ما. شيء مخيف سبب له الرعب منذ دقائق. ذلك القرد الأسود اللعين بعيونه الصفراء المشقوقة.

لم يكن هناك أي مكان يصلح للاختباء غير سقف الخزانة المعدنية المخصصة للأدوية، أو أسفل الفراش. بحث أولا بعينيه فوق الخزانة والتي بالكاد وصلها قدر ضئيل من ضوء المصباح الزيتي المعلق بالحائط. مد المصباح نحوها فلم يكن هناك أي شيء يعلوها. تبقى أسفل الفراش، وبتردد انحنى على ركبتيه وخفض رأسه ليتأكد، وهو يخشى أن يكون القرد مختبئا هناك.

خاطر مرعب.

من حسن الحظ أن القرد لم يكن هناك أيضا. نهض فتحي وهو يفكر في أنها ربما كانت هلاوس بصرية وتهيؤات. إنه لم يشفَ بعد منها تماما كما يعلم، فما المانع أن يضاف لأشباح رفاقه الموتى الذين يراهم

طوال الوقت، المزيد من الأشباح.

اقترب من العجوز، وشعر أنه قد ألف الرائحة الخانقة التي تنبعث منه، وغمغم وهو ينظر إليه في توتر:

-ترى ما هي قصتك الحقيقية أيها العجوز؟

ثم راح يفحص نبضه ويستمع إلى قلبه وصدره، كان كالأمس بلا تغيير يذكر في علاماته الحيوية. كل الاحتمالات بالنسبة له كانت متعادلة يمكنه أن يبقى هكذا لشهور عدة، واحتمال موته بعد لحظات يملك نفس القدر. دس في دراعه النحيل زجاجة جديدة من محلول الجلوكوز وهو يتساءل إن كان هذا كافيا لتغذيته.

وبينما جلس على مقعد خشبي في انتظار أن ينتهي المحلول، كان صوت المطر بالخارج يعلو رويدا رويدا. وحين حانت منه التفاتة نحو الباب رآهم هناك.

علم أنهم قد عادوا.

كان الصول إبراهيم التهامي أولهم جميعا، بجسده الضخم للغاية وكرشة المهول ورأسه الكبير المستدير، وشاربه الكث الطويل الذي يحيط بفمه ويواصل طريقة لنحو العشر سنتيمترات أسفل ذقنه. كان الصول إبراهيم هو المسؤول عن تدريب الجنود وتوزيع مهامهم في وحدته في الجيش. رجل قروي من إحدى بلدات محافظة الشرقية، يفخر بقدرته على أكل أكثر من عشرين بيضة مسلوقة في الإفطار مع ثمان أرغفة من الخبز البلدي،

ويتشدق طوال الوقت أن الجندي المصري قادر بذراعيه العاريتين على الفتك بكتيبة كاملة من الإسرائيليين الأعداء الملاعين. يقولها دوما وهو يشمر كم قميصه الميري المموه، ليظهر عضلاته الضخمة وكفه الغليظة الهائلة. ثم يبرهن على قوته بأن يضم كفيه ويضرب بهما كتلة من الصخر الصلد لتتفتت إلى تراب.

في الوحدة تراهن الجنود على أنه قادر على اقتلاع دبابة من مكانها بذراعيه، وأن الرصاص نفسه لن يقدر على اختراق عضلاته وعظامه. لكن وفي الساعات الأولى التي بدأت فيها الطائرات الصهيونية هجومها أثبتت طلقة واحدة مجهولة المصدر اصابت جانب رأسه، كذب كل تلك الادعاءات. ومات الصول إبراهيم التهامي على الفور.

في تلك اللحظة كان الصول إبراهيم يقترب من فراش العجوز المحتضر واستطاع فتحي ان يرى الثقب الأيمن الأسود في جانب راسه الأيسر وحوله كتلة من الدم المتجلط. ثم وقف في نهاية المساحة الضئيلة التي تفصل الفراش عن الحائط وراح يرمق المريض في صمت.

من بعده ظهر سعيد المسيري، ذلك القروي النحيل ذو الجسد الأسمر الهزيل، والذي كان يقرض الشعر، والذي ظل يسمعهم قصائده الحزينة التي كتبها لحبيبة -يرفض أن يذكر من تكون- حينا، ولبلدته الكائنة في قلب جبال الصعيد حينا آخرا، قبل أن تجرفه الحماسة لقتال اليهود فيغني لهذا المواويل والقصائد التواقة

للحرب والنصر. طوال الوقت كان سعيد يحدثه عن أن لهفته لقتال الإسرائيليين لا تقل عن لهفته لرؤية ابنة خالته والعودة لقريته للزواج بها، واثقا طوال الوقت الذي طال أنها سوف تنتظره حتى يعود ولن تقبل برجل آخر غيره، وكيف لا تفعل وقد أقسمت له بهذا آخر مرة رآها قبل الذهاب لجبهة القتال، بل وقصت خصلة كبيرة من شعرها الأسود المجدول، ومنحته إياها كي يتذكرها.

طوال الوقت كان يحتفظ بتلك الخصلة في كيس صغير لا يفارق جيبه فوق قلبه. قامت الحرب قرب الثامنة صباحا في الخامس يونيو لعام 1967م، وقرب نهاية اليوم كانت الهزيمة محققة ومريرة في حلق الجميع. لم يحتملها سعيد، وراح يعدو في الصحراء الملتهبة وهو يصرخ في قهر: «يا ولاد الكلب» ويضرب نار سلاحه في الفضاء وكأنما يحارب أشباحا وهمية، ومن العدم أصابته قذيفة، فصنعت فجوة كبيرة في صدر، تماما حيث ظل محتفظا بالخصلة السوداء لحبيبته التي لن يتزوجها بالطبع أبدا.

بفجوته السوداء في صدره النافذة للناحية الأخرى وقف سعيد إلى جوار إبراهيم، وراح هو الآخر يرمق المريض في هدوء.

ثم جاء الدور ليظهر من خلف الباب «غريب الصويل»، المهندس المدني بعد التخرج، وطالب الجامعة المنتمي للتيار الشيوعي سابقا. الشاب الثائر الناقم على كل ما يحدث. يتذكر فتحي نظراته المذعورة دوما والتي تخبرك

بما جرى له في معتقلات الدولة من أهوال. ورغم هذا ظل قادرا على انتقاد النظام ورجاله. ما زالت كلماته تتردد في أذنه وخاصة بعدما اتضح صدقها، كان يصرخ فيهم داخل عنابرهم في حنق ويردد:

- انهم يسوقوننا للموت.. ألا ترون؟ المدرعات خردة تالفة والأسلحة غير كافية وأغلبنا لم يتدرب جيدا على استخدامها، ولا توجد استعدادات حقيقية لحرب كبرى مثل هذه.. نحن وقود الهزيمة القادمة، والمحظوظ منا هو من يموت في الموجة الأولى.

مازال فتحي يذكر نزهاتهما الليلية في الصحراء الحارة وهما يتبادلان لفافات التبغ التي يشتركان في إدمان تدخينها، وهو يردد في لهجة أشبه بالجنون:

- لا تصدقهم يا فتحي. إننا لن ننتصر، إنهم يخدرون الناس بالأناشيد الثورية وخطب الزعيم الحماسية، ويلعبون طوال الوقت على أوتار الوطنية، يحدثونهم عن الحرب السهلة والوصول إلى تل أبيب في أيام وإلقاء اليهود جميعا في البحر.

ثم بصق في الرمال حينها وأطلق شخيرا متهكما ثم أكمل:

-هراء. فقط لو كنت متدينا عليك أن تدعوا الله ألا يدفننا اليهود في هذه الصحراء بعد أن ينتهوا منا. الحقيقة الوحيدة في كل هذا، هي أنهم يقودون البلد بأكمله إلى حتفه بغباء وعناد. والمصيبة أنه لا أحد عاقل

يحاول منعهم من هذا الانتحار.

لم يصدقه فتحي وقتها، وإن لم يبح له بهذا. ظن أن سنوات السجن والاعتقال والتعذيب قد أصابت غريب بالجنون، لكن الهزيمة أتت وأثبتت كم كان غريب محقا في توقعه وكم كانوا جميعا حمقى مغفلين.

كان غريب مسؤولا عن رشاش الى أخبروه أن يوجه فوهته نحو الطائرات في السماء حين تأتي، بدأ القتال بغتة وانهالت فوق رؤوس الجميع القذائف. ثم اختفى غريب وسلاحه. هتف أحدهم:

- لقد هرب الجبان بلا شك. هرب بسلاحه وتركنا لنموت.

وأجابه جندي آخر:

- خائن عدو للبلد. ألم يكن شيوعي كافر.

سمع فتحي كل هذا، وإن لم يفهم كيف يمكن لغريب أن يحمل سلاحا يفوق وزنه بكثير ويختفي به في قلب الصحراء هربا من الموت. بعد ساعة هبطت قذيفة فوق موقعهم، صنعت حفرة كبيرة في الرمال، وهناك ظهر جثمان غريب المدفون في الرمال ومازال قابضا على سلاحه، وفمه يصرخ في جنون نحو العدم. لم يهرب البطل، لقد دفن في الرمال.

وها هو ينضم لرفاقه الآن. دخل الغرفة ثم توقف بجوار الصول إبراهيم وسعيد ونظر هو الآخر إلى جسد الرجل

المحتضر في هدوء.

ثم ظهر الرائد محمد شريف، قائد الوحدة، كان من قتلى موجة القتال الأولى، مات وهو يصرخ فيهم بالثبات. كان بطلا بحق، وكانت جائزته قذيفة اقتلعته من مكانه ومزقت ذراعه وعنقه.

دخل شريف الغرفة برأسه المائل على جانبه الايسر وعنقه الممزق الذي تبرز منه العضلات والأوعية الدموية المقطوعة، ما أبقى رأسه فوق جسده كانت فقرات عنقه البادية الآن من فجوة العنق وهو تلمع بلونها اللؤلؤي الأبيض وكأنما صقلتها الشمس الحارقة. وقف إلى جوار رفاقه الشهداء الثلاثة ليراقب هو الآخر العجوز المحتضر.

وفي النهاية دخل جورج ملاك. ممرض الوحدة ومساعده ورفيقة في رحلة الهروب والعودة في قلب الصحراء تحت شمس يونيو ويوليو الملتهبة. كانا كل من بقي حيا من جنود الوحدة وكان نصيب فتحي شظية من قذيفة هشمت عظمة فخذه، ساعده جورج على الحركة وقد راح يتوكأ على كتفه طوال الوقت، وكم من مرة نجحا فيها في الهروب من مطاردات طائرات ومروحيات العدو الإسرائيلي التي راحت تتعقب الجنود المنسحبين، وتتسلى بالقضاء عليهم.

قرب التل الكبير جاء طابور من العربات التي تحمل بعض الجنود المصريين، وبحماس اندفع نحو أول عربة وهو يرفع بندقيته عاليا ويلوح بها في فرح جنوني

واندفع في سرعة نحو المركبة، ويبدو أن قائد العربة تفاجأ به، فدهسه أسفل عجلات مركبته. كان غريبا أن ينجو جورج من رصاص وقذائف العدو، ليموت أسفل مركبات الزملاء. وها هو يدخل بجسده الممزق وعظامه المتكسرة، يمشي بخطوات متكسرة مرعبة وكأن عظام قدميه تمزقت إلى ألف قطعة.

وقف جورج إلى الناحية الأخرى من الفراش. في نفس مكان الصبي، نظر إليهم فتحي في ترقب وقلق، لماذا عادوا ثانية للظهور أمام عينيه، وماذا يفعلون حول فراش العجوز المحتضر. وكأنها قرأت أشباح رفاقه أفكاره، جاء الجواب.

رفع الجميع أذرعهم فوق فراش الرجل، وراحوا يرددون في إيقاع واحد نفس الترنيمة الغريبة التي كان أهل الرجل المحتضر يرددونها منذ قليل. الترنيمة التي أخبره الصبي أنها أغنية بدوية كان يحبها العجوز. لكنه كان يعلم أن هذا كذب. كان يشعر بأنها تعويذة ملعونة وشريرة للغاية يرددونها لهدف ما.

راح صوت الأشباح الموتى يرتفع رويدا رويدا، وبعد قليل شعر فتحي أن هناك المزيد من الاشباح لذين لا يراهم يرددون مع رفاقهم تعويذتهم اللعينة. تكمش حول نفسه في رعب، ومن قلب الظلام القابع خارج غرفة فحص المرضى، ظهر القرد الأسود ضئيل الجسد، بعينيه الصفراوين المشقوقتين طوليا. تحرك بخطوات معتدلة نحو الفراش، وارتفعت الأصوات في تلك اللحظة

ثم قفز القرد فوق الفراش ليقف فوق بطن الرجل المحتضر، وهو يرمق وجهه المتغضن في جمود.

شعر فتحي في تلك اللحظة بهلع لا حد له، وقلبه يقرع صدره في جنون، مزق الصداع رأسه، واشتعل الألم في ساقه المصابة. راح ضوء المصباح الزيتي يضعف بصورة تدريجية، واضمحل ضوئه كثيرا وبدا أن سوف ينطفأ.

وبصوت مكتوم تضرع فتحي في سره.

- بالله عليك لا تفعلها الآن، وابق مشتعلا»

لكن المصباح لم يستجب له، وتراقص الوهج في فتيله مرة أخيرة، ثم انطفأ المصباح بعدها ليسود الظلام الدامس. توقفت التراتيل هي الأخرى، وأطبق على المكان صمت تام. فقط دقات قلب فتحي المرعوبة كانت الصوت الوحيد الذي يمكن سماعه.

منكمشا في مقعده الخشبي خلف المكتب كتم فتحي أنفاسه. وهو يتلفت حوله في ذعر وكأنه يفتش في الظلام عن عدو خفي. ثم تذكر أنه مازال يحمل علبة الثقاب في جيبه. أخرجها بأطراف أصابعه، وبيد مرتعشة جرب إشعال عود الثقاب الأول، انكسر العود في يده فالقاه بسرعة، وأخرج من العلبة عودا آخر قدحه بالعلبة في سرعة، فتوهج العود للحظة ثم انطفأ بسرعة، لكن حظ المرة الثالثة كان أفضل. ومع توهج عود الثقاب أظهرت دائرة الضوء ما ستره الظلام عن عينه، فأمام رأسه تماما كان هناك وجه القرد على بعد سنتيمترات

قليلة منه، وهو يراقبه بعيونه الصفراء المشقوقة وعلى فمه ارتسمت ابتسامة منذرة. بينما التفت أشاح رفاقه حول القرد وجميعهم ينظرون إليه في تشف وشر.

نفخ القرد في عود الثقاب فانطفأ ليصرخ فتحي في رعب ويده تضرب الظلام بلا هدى وكأنه يدفع كل هؤلاء بعيدا عنه. ارتطمت كفه بالفراغ. لم ينتظر مكانه وراح يعدو في الظلام. اصطدمت قدمه السليمة بشيء ما وآلمته بشدة لكنه لم يتوقف. ارتطم رأسه بالجدار في عنف دامي لكنه ظل مصرا على الفرار. نجح في الخروج من باب الحجرة واتجه مباشرة نحو باب الوحدة لخارجي، لم يفكر في حجرته أو الصعود إليها لن يحبس نفسه في هذا المكان مع كل هؤلاء الشياطين.

عند الباب حمد الله أنه قد ترك المفتاح في المزلاج، لا يدري كيف كان سينجح في فتح الباب في الظلام لو لم يكن المفتاح في مكانه، فتش عليه بأنامل، بسرعة وحين عثر عليه أداره في رعب وهو يتوقع أن تحيط بقدميه أصابع باردة مجهولة، أو تتعلق بجسده، أو عنقه كف ما قادمة من الظلمة خلفه لتمنعه من الفرار. من حسن حظه أن هذا لم يحدث، وببساطة استجاب الباب ليده وفتح بسلاسة.

الخطوات الأولى في فناء الوحدة الصحية، كانت كافية ليتسمر مكانه، حيث غرزت قدماه في الرمال الموحلة بفعل الماء. ورغم المطر الغزير حد السيول والرياح العاصفة القارسة لم يكن المكان خاويا. كانوا هناك.

حشد هائل من بشر يقفون في العراء ويحيطون بمدخل الوحدة الصحية تماما. حشد من ذئاب وكلاب وبشر وظلال مظلمة لا يرغب أي رجل مهما تحلى بالشجاعة في التفكير في كنهها. ومن بين الحيوانات ميز فتحي كلبين ضخمين للغاية، «تومي» و «ريتشي»، كلبي سارة.

تقدم الحشد نحوه لتضيق دائرة الحصار من حوله فتراجع فتحي خطوة للوراء، ثم سمع ضحكة غريبة قادمة من وراءه. استدار للخلف ليجد أن باب الوحدة الصحية مغلق هو الآخر في وجهه وقد وقفت أمامه أشباح رفاقه والقرد الأسود وبينهم وقف العجوز المحتضر في ثبات مريب غير آدمي.

دقات قلبه في تلك اللحظة كانت كسيارة تعدو وقد تلفت مكابحها. والصداع في رأسه صار مقصلة حادة تتأهب لشق دماغه. علم أنه بعد لحظات سيهوى في غيبوبة.

في الواقع كان هذا أكثر ما يتمناه أمام كل هذا الرعب، حتى لو كان في هذا موته...

مرة أخرى كان من حسن حظه أن الأمر لم يتأخر.

وفقد وعيه.

***

(9)

حين استيقظ فتحي وجد نفسه في الحجرة نائما في فراشه. كان الصباح قد جاء منذ ساعات كما يبدو من حوله. نظر إلى المنبه فأشارت عقاربه المضيئة للتاسعة صباحا.

هل نام كل هذا؟

جرب أن ينهض فشعر وكأنما يهوى في بئر أسود بلا قرار من الدوار. ضغط رأسه بقوة في وسادة الفراش وهو يحاول تذكر كيف عاد إلى الحجرة بعد أحداث الليل الرهيبة، ما يتذكره أنه فقد وعيه بالأمس في الفناء الخارجي للوحدة الصحية، فقد وعيه وهو محاصر من الأمام والخلف بحشد مريب من البشر والحيوانات. فكيف عاد لحجرته؟

هل تركوه ورحلوا، وحين استرد وعيه عاد للحجرة؟ لكنه لا يتذكر أنه قام بشيء كهذا.

كانت عودته لحجرته لغز مريب.

نظر للحجرة من حوله فلم ير فيها أي تغير قد طرأ عليها، نظر للأرض المبلطة باحثا عن أي أثر غير آثار أقدامه فلم ير شيئا، حتى آثار قدمه على بلاط الحجرة كانت غير موجودة. لقد كانت تمطر بالأمس وبغزارة والأرض الرملية كانت موحلة. قدمه نفسه كانت ملوثة

بالرمال والوحل، ولو أنه عاد لحجرته بالأمس بعدها لترك على البلاط أثارا لبعض الرمال والوحل بلا شك.

نهض ببطء هذه المرة كي لا يعاوده الدوار. ثم نظر لقدميه فوجد أنهما نظيفتان تماما ولا رمال عالقة بهما. خفض عينيه أسفل الفراش ليرى حذائه، كان نظيفا هو الآخر ولا أثر للوحل فيه. وأخيرا نظر لملابسه التي يرتديها، كانت نفس الملابس التي على جسده بالأمس. لم يكن بها أي أثر للبلل، ولم يكن هناك أي دليل على سقوطه بها وسط المطر.

هل كان يهذي ويتخيل كل ما مر به من أهوال؟

أم أنه كان يعيش كابوسا دون أن يدرك هذا؟

الأمر مريب ووجد نفسه يشك مرة أخرى في عقله. لقد عاد لجنونه، جنونه الذي لازمه حين عاد بمفرده كآخر فرد من وحدته على قيد الحياة، جنونه الذي زاد حين علم أن «فاتن» خطيبته قد ألقت بدبلة الخطوبة في كف أمه ورمت معها عشرات الأحلام ومئات الذكريات وآلاف القصائد التي قرأها لها وألف بعضها من اجلها. لأنها لن تطيق انتظارا طويلا حتى تنتهي حرب لا تلوح في الأفق نهايتها، ولأن هناك عريس جاهز مستعد للزواج بها.

لقد أخبره طبيبه النفسي أن عقله تأثر كثيرا بمعاناته، وأن الأشباح التي يدعي أنه يراها ما هي إلا هلاوس بصرية يختلقها عقله الباطن لينفث بها عن شعور عميق بالذنب ممتزج بغضب كبير مما لاقاه، وربما زاد

من حدة مرضه إصابة قدمه التي منعته من العودة للجيش ليواصل الحرب ويحصل من العدو الصهيوني على ثأره.

لكن ما أداره أن كل ما حدث كانت أوهاما بالفعل، ربما كان ضحية خدعة متقنة، خدعة تستهدف إثارة جنونه وتشككه في نفسه، مال لهذا الاحتمال وتمنى لو يكون هذا صحيحا، كان من العسير أن توجد أوهام تترك أثرا في نفسه بمثل تلك القوة.

مرتبكا غادر الغرفة وهبط للطابق السفلي، كالعادة واجهه نفس السكون المريب الذي يسود المكان رغم أنه النهار كانت عايدة هناك، تجلس في صمت فوق أحد مقاعد الانتظار في رواق الوحدة الصحية، حياها فأجابته في اقتضاب ثم قالت:

-ماذا ستفعل مع مريض الغرفة؟

-ألا زال حيا؟

-كان على قيد الحياة حين رأيته منذ قليل.

-حسنا، سأراه بنفسي، اتبعيني من فضلك.

قالها في حسم واتجه للمريض. كان مثلما كان بالأمس وقبل الأمس، في طور احتضار لا ينتهي، أشار إليها بلا مبالاة أن تمنحه زجاجتين من محاليل الملح والجلوكوز. ثم تحرك للخارج، لدهشته سمعها تسأله:

- هل أنت ذاهب إلى أي مكان؟

ورغم دهشته من سؤالها، إلا أنه التفت نحوها وقال في بساطة:

- أرغب في رؤية البلدة.

لاحظ الاضطراب على وجهها، قرأ في عينيها أنها ترغب في تحذيره من فعل هذا. ثم بدا وكأنها ابتلعت كلماتها ثانية، وتشاغلت عنه بإعداد زجاجات المحاليل. لم يجد أمامه غير أن يواصل طريقه، فاتجه للخارج.

الرمال كانت مبللة والهواء البارد منقل من حوله، برائحة الندى، والسماء رغم الصباح كانت مغطاة بأكملها بالسحب. شعر بلسعة برد محببة تضرب وجهه لشاحب منحته بعض النشاط، فاتجه في حسم نحو الطريق المؤدي للبلدة. لم يقابل أي شخص في طريقه، تماما مثلما أتى أول مرة. لا رجل ذاهب لعمله ولا امرأة تحمل جرة ماء لتملأها من البئر ولا صبية تمرح أمام البيوت في عرض الشارع. لم يعثر كذلك على أي أثر للحيوانات الضالة أو حتى الأليفة. بدا المشهد أمامه مريبا وكأنه يسير في بلدة مهجورة. لكنه كان متأكدا الآن من وجود أحياء داخل تلك المنازل المنخفضة المشيدة بالحجارة والمعرشة بالأخشاب.

لقد رآهم بالليل أكثر من مرة وهم يلتفون حول الوحدة الصحية في منظر مخيف غير مفهوم حتى الآن. ورغم أن الشكوك في نفسه أنه ربما كان يهذي أو يتخيل ما

يـراه كل ليلـة، إلا أن شـيئا فـي أعماقـه كان يصـر عـن أن الحشـد الـذي رآه بالليـل كان حقيقـة.

حقيقة مخيفة تخفي خلفها سر مريب.

عـاد ليفكـر، مـا الـذي يدفـع بلـدة بأكملهـا للنـوم نهـارا والنشـاط ليـلا، الحادثـة الوحيـدة المشـابهة التـي يذكرهـا كانـت فـي مصـر فـي فتـرة الخليفـة الفاطمـي «الحاكـم بأمـر اللّه»، حيـن أمـر الخليفـة المجنـون أهالـي المحروسـة بالعمـل ليـلا والنـوم فـي الصبـاح، وحـرم فتـح الحوانيـت والأسـواق فـي النهـار. لكنهـا فـي النهايـة كانـت حادثـة شـاذة ابتدعهـا حاكـم مجنـون، إذا مـا سـر مـا يفعلـه أهالـي هـذه البلـدة؟

انتهـى الشـارع الـذي يسـير فيـه وتفـرع إلـى عـدة حـارات جانبيـة، ظلـت البيـوت سـاكنة دون أن تصـل إلـى أذنـه أي أصـوات غيـر عـواء الريـح التي تضـرب الجـدران. اختـار طريقا إلـى يسـاره وتقـدم. كان الشـارع أضيـق بكثيـر مـن الشـارع الرئيسـي، وقـد أحاطـت بجانبيـه بيـوت متهالكـة بعـض الشـيء.

إلـى يمينـه كان هنـاك منـزل منخفـض عـن الطريـق، لاحـظ نافذتـه المنخفضـة المفتوحـة التـي يمكنـه ببسـاطة لـو انحنـى أن ينظـر مـن خلالهـا ليـرى المنـزل مـن الداخـل. تـردد للحظـة وقـد تذكـر تحذيـر البعـض لـه قبـل المجـيء إلـى هنـا مـن عـدم تسـامح البـدو فـي مـن ينتهـك حرمـات بيوتهـم أو يهتـك أسـرارهم. لكـن الفضـول فـي نفسـه كان عاتيـا، وقـد طغـى تمامـا علـى تعقلـه وحـذره، اقتـرب مـن

النافذة الضيقة ومد عنقه عبرها ونظر إلى الداخل.

كانت تلك النافذة هي نافذة حجرة نوم كمـ بدا من الضوء الخفيف المتسلل للداخل، رأى فراش عتبق يرقد فوقه رجل عجوز في سكون غريب. كان الرجل ينام على ظهره في ثبات، دون أن تصدر عنه أي حركة تشي بأنه على قيد الحياة، حاول من مكانه أن يراقب حركة صدر الرجل ليتأكد إن كان حيا فلم يساعده الضوء الخافت على التيقن من هذا.

كطبيب كان يعلم أن الناس لا تنام هكذا في جمود، فقط تفعل هذا الجثث!

لاحظ فتحي في تأفف تلك الرائحة العطنة الخانقة القادمة عبر النافذة من داخل الغرفة، نفس الرائحة الخانقة التي كانت تنبعث من مريضه. هل يكون هذا العجوز مريض يحتضر هو الآخر؟ ولماذا لم يأت به أهله للوحدة الصحية كالآخر طلبا لمشورته الطبية؟

لغز آخر لا يعلم تفسيره.

مغالبا تردده قرر القيام بأمر جريء، اندفع نحو الباب ثم قرعة في قوة. لابد أن هناك من يعني بهذا العجوز في المنزل. انتظر للحظات ثم أعاد الكرة. لاحظ نقش غريب مرسوم على الباب. النقش منحوت في الخشب بخط برسوم بدائية بسيطة، كان النقش يحمل رأس كلب!

لم يأت جواب من الداخل لطرقاته، لكن الباب، تحرك

للداخل قليلا بفعل قبضته.

إنه مفتوح إذا.

دفعه في حذر وهتف في توتر:

-مرحبا. هل هناك أحد بالداخل.

وككل مرة لا جواب. غالب رهبته وفتح الباب كله ثم خطا نحو الداخل. استقبلته الرائحة العفنة بقوة. كتم أنفاسه وهو ينظر بعينيه للردهة الكئيبة التي تحوي بعض الأغراض البسيطة. لم ينتظر في مكانه طويلا، واتجه بحذر نحو حجرة النوم المطلة على الشارع.

حجرة العجوز الذي رآه عبر النافذة.

كان بابها مفتوحا، وحين اقترب من الفراش كان العجوز على نفس وضعه الأول الذي رآه، هزه في رفق فلم يستيقظ، رفع كفه ليتحسس نبضه فوجد شرايينه تنبض في انتظام. إنه حي لكن جسده كان باردا للغاية كالجثث، نومته الغريبة تلك توحي بأنه في غيبوبة عميقة. رفع فتحي بصره نحو وجه العجوز المتغضن لتصدم عيناه بعيني العجوز المفتوحتين على اتساعها ومقلتاهما مصوبتان نحوه.

شهق في فزع حقيقي. وهو يتراجع للخلف، كانت عينا العجوز مغلقتين حين دخل منذ لحظات. والآن هما مفتوحتان، عينان مخيفتان بلا رموش تحيطهما. مثلما هي عينا العجوز المحتضر في الوحدة الصحية!

هل استيقظ الرجل؟

غمغم في ارتباك:

- أسف لو أزعجتك.

لكن العجوز ظل جامدا فوق الفراش وصدره يعلو ويهبط بضعف وبطء. عجوز يتعفن في غيبوبة. لكن عينيه ظلتا تتابعان فتحي في إلحاح. وكأنهما تدركان أنه شخص غير مرغوب به اقتحم المنزل. ببطء تراجع فتحي بظهره نحو باب الغرفة. تذكر أنه قد درس أن أعين المصابين بالتهاب السحايا، تتصرف بمثل تلك الطريقة المريبة. تبدو عيونهم كعيون الدمى الزجاجية التي تتبع من ينظر إليها.

هل يكون ما أصاب العجوز عدوى فيروسية؟

اصطدم ظهره في تلك اللحظة بجسد لين، وحين استدار في سرعة وفزع وجد نفسه في مواجهة امرأة عجوز. شهق في انفعال وهو يرى وجهها المتسخ وشعرها الثائر حول وجهها وكأنما لم يعرف يوما التهذيب أو المشط.

كان هناك دمل ضخم على طرف أنفها. بدت لعينيه كساحرة عجوز شمطاء، كما كانوا يتخيلونها في العصور الوسطى وقصص الأطفال الآن. شعر بالفزع وهو يراقب أصابع يديها الضامرة ومفاصلها المتضخمة. كانت ترمقه في غضب وكراهية. أراد ان يعتذر لكن حرفا لم يخرج من فمه. كان يشعر برعب لا حد له أصابه باخرس.

مضت لحظات طويلة ثم همست العجوز بصوت كالفحيح:

- ارحل من هنا.

أرعبه صوتها بشدة. هل يكون هذا هو تحذيرها الأخير قبل أن تحوله لجرذ أو قط أو أي حيوان آخر كما تفعل الساحرات؟

لم يفكر كثيرا، وبحذر كي لا يلمسها انكمش جسده بشدة وهو يمر من جوارها ثم أسرع نحو باب المنزل الخارجي وهو يلهث، في الخارج وأمام كل المنازل من الجانبين وقف أهالي البلدة جميعا وكأنما هم في انتظاره، كانت عيونهم جميعا مصوبة عليه، عيون جامدة تمتلئ بالكراهية والغضب. كانت العيون تحمل شيئا غير آدمي. كما كانت وقفتهم الجامدة المتصلبة كالتماثيل تصيبه بالذعر.

لم يشعر قتحي بالرعب في حياته كلها مثل تلك اللحظة، ولا حتى حين واجه جنود العدو الإسرائيلي، ورصاصتهم وقذائفهم تطارده.

ومن خلف أذنه ارتفع صوت يعرفه جيدا، صوت غريب الطويل، صديقه الشيوعي الشهيد:

-اهرب أيها الأحمق.

هنا بدأ يجري بكل قواه، تعثر في حفرة صغيرة لم يرها، لكنه نهض بسرعة وواصل العدو. لم ينظر لحظة للوراء. كان يعلم أن هذا كفيل بأن يتعثر ويسقط، كان

يخشى أن يكون أحدهم في أثره.

عند الشارع الرئيسي لم يكن هناك أي من أهالي البلدة أمام البيوت. فقط راحت الرياح الباردة ترتع بلا رقيب. ورغم أن قدمه المصابة كانت تنضح بالألم الشديد في تلك اللحظة وكأنما تحتج على المجهود الكبير الذي يدفعها للقيام به إلا أنه واصل العدو.

قرب الوحدة الصحية خفف من الجري ثم توقف وراح يلتقط أنفاسه في سعار، لنحو الدقيقة، وبيطء بعدها راح يجر قدمه المصابة وهو يواصل السير نحو باب الوحدة الصحية.

وهناك وجد سارة تنتظر وهي ترمقه في صبر وصمت

***

ONE PIECE
BOOKS

(10)

كانت سارة فاتنة، حقيقة لن ينكرها إلا من يتسم بالعمى.

بدت من بعيد في تلك اللحظة ببشرتها البيضاء التي لوحتها شمس الصحراء، وشعرها الأشقر الناعم يتطاير حول وجهها بفعل الريح القوية كـ «ربة» من ربات الجمال. فاتنة مثيرة قادمة من فوق جبل الأوليمب لتقوم بعمل غامض في تلك البلدة المنسية.

من العجيب أن يتسم كل من يحمل اسم سارة بالجمال!

حتى المصريات لم يخالفن تلك القاعدة!

راح يدنو منها فرمقته بعيون متشككة سرعان ما دارتها بابتسامة باهتة وهي تسأله بالعربية:

-مرحبا يا دكتور عبد الوهاب. لقد كنت أنتظرك.

انتزع من وجهه ابتسامة مرحبة ليداري بها توتره، وهو يجيب:

-أسف لو تركتك تنتظرين، لم أكن أعلم.

اقتربت منه أكثر وهي تغمغم مبتسمة:

-يا إلهي؟ انظر إلى حالك. تبدو كصبي بائس طاردته كلاب ضالة لوقت طويل.

كان فتحي يقف أمامها وهو يلهث بالفعل، بينما عينه ترمقها في توتر ورهبة، فتاة أمريكية تعيش في بلدة نائية، أهلها يتسمون بالغرابة، وتدور فيها طوال الوقت أحداث مريبة، من المستحيل بالطبع ألا تكون قد شعرت بغرابة ما يدور من حولها، أما الاحتمال الأكثر صوابا، أن تكون متورطة معهم فيما يحدث.

تجاوزها متحاشي نظراتها وهو يغمغم:

- معذرة. هل يمكنني الجلوس أولا. إنها قدمي المصابة. هي تؤلمني قليلا.

قالها وتحرك نحو مصطبة من الحجر معدة للانتظار في فناء الوحدة الصحية. جلس فوقها وراحت يده تدلك القدم المصابة. لدهشته انحنت أمامه على ركبتها وأزاحت يده عن قدمه المصابة وراحت تدلكها بدلا منه وهي تقول:

- يا لصغيري البائس. تبدو بحاجة لمن يعتني بك. دع لي هذه المهمة.

أراد أن يبعد أنامله عن قدمه لكن تلك الكهرباء التي سرت في جسده حين لمست أنامله قدمه منعته. كانت يدها ماهرة في فنون التدليك بالفعل. وكالسحر راح الألم ينحسر سريعا عن قدمه. تماما كما فعل الصداع من قبل. راقبها وهي تعمل في جد، قبل أن ترفع رأسها وتقول:

-والآن أخبرني، هل زال الألم؟

وجد نفسه يجيب بسرعة دون تفكير:

-كيف فعلتِ هذا؟ لقد ذهب الألم تماما! تملكين كما أرى أصابع ذهبية، هل أخبرك أحد من قبل بهذا؟

-ربما كنت ساحرة.

قالتها في مكر فارتجف من وقع الكلمة وهو يرقب عينيها الزرقاء التي حولها ضوء النهار لبحيرة غامضة من لون عجيب، لكنها سرعان ما ابتسمت وضحكت وهي تقول:

-إنني أمزح بالطبع، ألم أخبرك من قبل بصديقتي الصينية التي علمتني بعض المهارات؟

ضحك في مجاملة ثم نهض فنهضت هي الأخرى، وقالت له:

- والآن هل حان الوقت لتفي بوعدك ونسير سويا قليلا.

لدهشته شعر بأن النفور الذي يشعر به نحوها قد ذهب. ضرب الأرض برفق بقدمه المصابة ليختبرها، وحين وجدها لا تؤلمه كثيرا أعلن موافقته على التجول معها. غادرا حديقة الوحدة الصحية سويا، وعند مفترق الطرق منحته سارة ابتسامة مثيرة جديدة وهي تقول:

-إلى أين تحب أن نذهب؟

نظر إلى البلدة بقلق وهو يتمنى ألا تقترح العودة إلى

البلدة. لكنه وجدها تتأبط ذراعه في بساطة وتجذبه للناحية الأخرى وهي تقول في نعومة:

-ما رأيك في السير في هذا الاتجاه بعيدا عن البلدة. لا أعتقد أنك قد ذهبت إلى تلك التلال من قبل. سأريك مشهدا مثيرا للمكان كله من فوقها.

تحركا سويا وقد شعر بحرارة جسدها الملتصق به. كان يرتدي معطفا ثقيلا، بينما كانت سارة ترتدي بلوزة قصيرة الأكمام، دون أن يبدو عليها وكأنها تشعر بالبرد مع تلك الملابس الخفيفة.

من حسن حظه أنه لم يلتفت للخلف، فهناك كانت عايدة تقف أمام باب الوحدة الصحية وهي تراقبهم، وترميهم بنظرات مرتجفة. كان ليشعر بالذعر لو رأى هذا. سارا في صمت وقدماهما تغوص في الرمال المبلة قبل أن تقول سارة:

- كم أهوى تلك الصحراء، إنها مثيرة وغامضة

- لكن ما الصحراء غير الرمال والقيظ والعطش.

تمنى لو أكمل جملته وقال كلمة «الموت»، فبعد الحرب لم تعد الصحراء تذكره بغير الهزيمة والموت، لكنه لم يقلها، بينما واصلت سارة الحديث:

- أشعل خيالك قليلا أيها الشاب، ولا تشعرني بخيبة الأمل. الصحراء تعني المغامرة والخيال والسحر والغموض. الصحراء تعني الفرسان والخيل. ألست عربيا

تدرك تلك الحقيقة؟ يدهشني كثيرا أن يراها أحد أبنائها بمثل تلك الصورة المبتورة الفقيرة.

- ربما لأنك فيها لفترة وجيزة. إنها بالنسبة إليك مجرد رحلة مثيرة أو مغامرة قصيرة مختلفة عن حياتك في أمريكا.

توقفت والتفتت نحوه وهي تقول في غموض:

- هل يمكنك تخمين كم تلك المدة التي مكثت فيها هنا؟

ابتسم في ارتباك وهو لا يفهم مغزى سؤالها قبل أن يجيب:

-لا أدرى. ربما عام أو أكثر، لكنني أجد أثر شمس الصيف على بشرتك.

عادت لتسير وهو تجذبه من ذراعه قبل أن تجيب:

- كلا يا دكتور عبد الوهاب، أنا هنا منذ خمس سنوات كاملة.

شعر بالدهشة وهو يفكر في كلماتها. هل عاشت هنا خمس أعوام كاملة وسط الصحراء في بلدة تحيا حياة رتيبة لا جديد؟ ما الذي يدفع كائن عاقل للمكوث كل هذا الوقت هنا؟

طرح عليها تساؤلاته التي لم يقدر على كتمانها، وقال:

-وماذا قد يكون هنا ليدفعك لقضاء خمسة أعوام كاملة هنا.

أجابت في ببساطة ممتزجة ببعض الغموض:

-التدريس. أقوم بتعليم الانجليزية لأطفال القرية.

-التدريس فقط.

ابتسمت وهي تقول:

-تبدو متشككا، لكنك محق. لست هنا من أجل التدريس فقط بالطبع. إنني واحدة من علماء علم الإنسان، الأنثروبولوجي كما نطلق عليه. وفي الوقت الحالي أقوم بإعداد دراسة عن السلوك البشري في المجتمعات البدائية، وديرالنعمان كما ترى بادة نائية معزولة، منحتني فرصة ذهبية للعثور على مجتمع لا يعرف الكثير عن الحياة المدنية الحديثة. الناس هنا تعيش الحياة نفسها التي عاشها الاجداد منذ أكثر من ألف عام.

غمغم فتحي في تشكك:

-مازلت أرى الأمر محير. ربما كنت أتقبل هذا لو مكثت هذا لعام أو حتى اثنين. لكن خمسة أعوام؟ في رأيي أنك إما متحمسة أكثر من اللازم، أو تخفين سببا حقيقيا آخر.

- وما هذا السبب الحقيقي برأيك؟

- لا أعلم. ولهذا أسألك.

أطلقت ضحكة عالية وهي تقول:

-نحن الغربيين نختلف كثيرا عنكم أيها العرب، فبينما ترمقون الغرب طوال الوقت بشغف ولهفة، نتوق نحن للسحر الكامن في أرضكم. بالطبع لا أتحدث عن مدنكم القبيحة المشوهة القذرة. إنني أتحدث عن مكان لم تتلفة الحضارة كهذا. ولهذا لن أكون أول ولا آخر شخص يرغب في قضاء سنوات طويلة من عمره في بلدة بدائية كهذه.

-أنتم أيها الغربيون لا تعرفون عنا غير الأساطير.

-ربما كنت محقا يا دكتور عبد الوهاب، وربما كان هذا سر سحر الشرق في عقولنا، بالمناسبة أرجوا ألا تبتعد عني ونحن نسير. هذه المنطقة تحوي رمال متحركة وتجربة السقوط فيها ليست من التجارب المحببة للمرء.

نظر فتحي أسفل قدميه على الفور في توتر، ووجد نفسه يلتصق بها أكثر، ران عليهما الصمت لبضع دقائق، ثم أشارت سارة بيدها للأمام وهي تقول في سعادة:

- بالمناسبة لقد جئت بك إلى هنا لأني أحب كثيرا هذا المكان؟

أمامه كان يرى شواهد حجرية بدائية تمتد أمامه خلف ما بدا له أنه بئر قديم، وتنتهي بالتل المرتفع. كانت شواهد قبور.

هل تقول سارة أنها تحب المقابر؟

لم يعلق فتحي وتبعها في وجوم وصمت. كانت هناك بعض أشجار النخيل هنا وهناك مع بضع أشجار أخرى. مد فتحي بصره في فوهة البئر فلفت نظره الرائحة العفنة التي تبعث منه. رائحة يعرفها الآن جيدا. انها نفس الرائحة العفنة التي تصدر من مرضى البلدة. دفع رأسه بعيدا للخلف وهو يقول متأففا:

-يا إلهي ما تلك الرائحة؟ هل يلقون موتاهم في تلك البئر؟

أجابته في دهشة:

-بل يدفنوهم في تلك القبور بالطبع. لماذ قلت هذا؟

-إنها تلك الرائحة، ألا تشمينها؟

-ربما سقطت بعض الحيوانات الضالة في البئر ونفقت ثم تحللت.

احتمال معقول، لكن ماذا عن المرضى، هل يبتلعون هم الآخرين حيونات ميتة تخلق فيهم تلك الرائحة لشنيعة.

ابتعدت عنه سارة في تلك اللحظة واخترقت صفوف المقابر الممتدة أمامهما دون أن تجذبه ليرافقها، لا يدري لماذا فضل أن يتأخر عنها ويراقبها من مكانه، ولذهوله وجد صوتا يهمس في أذنه قائلا:

- خذ حذرك منها أيها الأحمق، وراقبها جيدا.

كان صوت الصول إبراهيم التهامي، بلهجته الريفية المؤنبة التي اعتاد على إلقاءها على آذان جنوده حين يقومون بعمل خاطئ في الوحدة العسكرية. نظر حوله في ذهول فلم ير شبح الصول إبراهيم ولا شبح أي واحد من رفاقه الموتى. إذا من أين أتى هذا الصوت المنذر؟

نظر أمامه فوجد سارة تنحني نحو باب أحد القبور وقد ظهر أنه مفتوح وتركع أمامه، وبعد لحظة خرج حيوان سرعان ما عرفه فتحي.

كان حيوان شبيه بالكلب.

كان ابن آوى!

ولذهوله وجدها تربت على رقبته في حنان حقيقي والحيوان مستسلم تماما لأناملها. أمر لا يصدق.

لحظات وخرج من القبر المفتوح المزيد من بنات آوى حتى صار عددهم خمسة، وجمعيهم التفوا حولها في هدوء، بينما راحت تربت على رقابهم وظهورهم وكأنهم حيواناتها المستأنسة، كان يراقبها في غير تصديق وانفعال حين التفتت بنات آوى كلها مرة واحدة نحوه بوجوهها القبيحة وكشرت عن أنيابها وكأنها تنذره.

تراجع فتحي للخلف في توتر وهو يفكر إلى أين يهرب لو قررت تلك الحيوانات مهاجمته، بالطبع لن تساعده قدمه المصابة على الجري والهروب. كان يعلم أن تلك الضواري الكريهة تختار فرائسها بعناية. تتجنب القوي

منها وتختار الضعيف المريض او الجريح. حيوانات ملعونة وضيعة لن تجد أبدا في ذلك المكان من هو أضعف منه لتنال وجبة لا بأس بها، وجد نفسه يهتف في صوت مخنوق:

- سارة.

لكنها ظلت في مكانها واكتفت بأن نظرت إليه وهي تقول:

- تقدم يا فتحي ولا تخف، لن يؤذاك أي منهم وأنا معك، إنهم حيوانات لطيفة كما ترى.

رمق الحيوانات المقززة التي كشرت عن أنيابها في وجهه فلم يرى أي لطف فيها يدعوه للاقتراب منها، فقال في عناد:

- أريد أن أعود من فضلك.

لكنها قالت محتدة:

- كلا، إننا لم نصعد التلال بعد.

- يمكننا أن نصعدها في وقت آخر، لكني دعينا نذهب.

نهضت فتراجعت الضباع لداخل القبر، وقالت وهي تعود إليه:

-هل عادت قدمك لتؤلمك؟ يمكنني أن أدلكها لك لو شئت.

أراد أن يخبرها أنها ليست ساقه. إنها وحيواناتها المتوحشة من يخافهم الآن، لكنه قال بدلا من هذا:

-لا شأن لقدمي بهذا، فقط أرغب في العودة من فضلك.

رمقته بهدوء للحظات قبل أن تقول وهي تتحرك:

-حسنا أيها الرجل الشرقي المتقلب، فقط عدني أن ترافقني في تلك الرحلة في وقت آخر.

رهق بنات آوى التي عادت لتدخل القبر المفتوح مرة أخرى وقال:

-أعدك بهذا.

عادا سويا دون ان يتبادلا الكثير من الكلام هذه المرة، في الواقع كان ما رأه أكبر من أن يتخيله، امرأة تداعب بنات آوى وتحب المقابر، في بلدة تدور فيها أحداث مخيفة.

إن لم يشك فيها ويرتاب فيما يحدث فهو حتما حمار أحمق.

***

كان الكلبان بانتظارهما هناك أمام مدخل الوحدة الصحية. تومي وريتشي كما تدعوهما سارة. رمقهما فتحي بحذر في الوقت الذي نظر إليه الكلبان في تحفز. إنهما يكرهانه أو ربما لا يروق لهما. شعر بهذا، وإن كان السؤال هل تعكس مشاعرهما مشاعر سيدتهما الغامضة نحوه.

هل تكن له تلك الفاتنة المريبة الكراهية أسفل هذا القناع الباسم في وجهها؟

حيته سارة وهي تبتعد مع الكلبين قائلة:

-إلى اللقاء يا دكتور عبد الوهاب. أراك في الغد.

أجابها ملوحا في فتور:

- إلى اللقاء.

ببطء تحرك نحو الداخل. وفي غرفة الملاحظة كانت عايدة بانتظاره. قالت فور أن رأته:

- أريدك هنا يا دكتور.

دلف للحجرة في وجوم. كانت تقف بجوار المريض المحتضر وجهاز محلول موصل إلى جسده. تجاهل الرائحة الخانقة وغمغم:

- ماذا هناك؟

- المحلول يرفض النفاذ في أوردته.

نظر للمحلول المعلق، وهو يغمغم:

- ربما كانت الكانيولا بحاجة لتسليك.

-فعلت كل هذا، بل وقمت بتركيب واحدة أخرى غيرها. رغم هذا فالمحلول لا يسرى إلى جسده.

هل مات؟ بالطبع لا، وإلا ما معنى تلك الانفاس الواهنة التي لا زالت تتردد في صدره. تفقد النبض في أطرافه الأربعة. ثم التقط السماعة وراح يستمع إلى قلبه وصوت أنفاسه.

ما زال حيا. نظر إلى المحلول في حيرة وهو يشعر بعجزه ثم هز كتفيه في عجز وقال وهو يغادر الغرفة:

- لست أدرى سبب هذا. لكنه لازال حيا.

سارت عايدة خلفه وهي تسأل.

- هل من اقتراحات أخرى؟

- أرى أن نتوقف عن المحاولة الآن. فقط عليك معاودة المحاولة مرة أخرى بعد ساعة او ساعتين. سأكون في حجرتي لو احتجت لي.

اتجه إلى حجرته وهو يستعيد أحداث اليوم الثقيل. ما الذي حل بتلك البلدة الغريبة؟

هل هو مرض فعلا. أم هي لعنة؟

ارتجف جسده وهو يرى أن كلا الاحتمالين ممكن. اتجه

إلى الطاولة الخشبية وبدأ في إعداد بعض القهوة باستخدام السبرتاية التي أحضرها معه من القاهرة. كان بحاجة لتنقية ذهنه والقهوة لا زالت هي المشروب السحري القادر على فعل شيء عجيب كهذا. حين انتهى من إعدادها صب القهوة بحرص في كوب زجاجي صغير ليحتفظ بـ (الوش) كما اعتاد أن يشربها، ثم أشعل سيجارة وراح يرشفها مع القهوة ببطء، وهو يتطلع للبلدة من خلف زجاج نافذته.

فكر في الهرب من كل هذا. كان يكره كل هذا الغموض الذي يحيط به، وهو الذي اعتاد الهرب من كل ما لا يفهمه. لماذا لا يحزم حقائبه ويعود مرة أخرى لقاهرة. لكن السائق الذي أتى به إلى هنا لن يعود قبل عشرة أيام كما أخبره.

هذا بالطبع لو عاد.

نبض قلبه وهو يتخيل أن يتخلى عنه ناصر البربري. احتمال آخر مخيف. هل معنى هذا أن يبقى هنا للأبد، أو على الأقل حتى تأتي مركبة أخرى للبلدة. كلا. لابد أن هناك وسيلة ما للخروج من هذا المكان اللعين. أشعل سيجارة جديدة، لكنه لم يدخنها خلف النافذة. كانت قدمه المصابة تؤلمه في تلك اللحظة فاتجه إلى طرف الفراش وجلس عليه ليريحها.

المثير للسخرية أنه أختار هذا المكان الناء وهو يعتقد أنه يبتعد فيه عن كل مشاكله وهمومه. يبتعد عن

ذكريات الحرب المقيتة. عن أشباح رفاقه الموتى، وعن حبيبته التي خذلته وتركته. لكنه لم يكن يدري أنه سيصبح كالمستجير من النار بالرمضاء. لقد رافقته كل همومه السابقة وأشباح اصدقاءه القتلى إلى دير النعمان، وفوق ذلك كان عليه أن يواجه كل تلك الأمور الغامضة المخيفة.

مع آخر انفاس سيجارته رفع رأسه نحو الخزانة الخشبية وهناك رأى الصندوقين الورقيين اللذين تركهما الطبيب السابق كما يبدو. صندوق كبير وبجواره آخر أصغر بكثير.

ما الذي بداخلهما يا ترى؟

ربما كانت المزيد من الكتب.

من الغريب أن يتنازل أي شخص عن مثل هذا الكنز من الكتب وأن يرحل ويدعه خلفه. هذه حماقة لن يقترفها فتحي أبدا.

قرر أن الوقت قد حان ليتفقدهما. اتجه إلى الصندوق الكبير أولا، كان ثقيلا للغاية، وبعناء شديد نجح في إنزاله من فوق الخزانة. كان هناك الكثير من الغبار العالق به كالصندوق الأول، مسحه بمنديله وفكر في فتحه قبل ان يعدل ويقرر إنزال الصندوق الأصغر الأخير أولا. بسهولة حمل الصندوق الصغير ومسحه هو الآخر بالمنديل ثم قرر فتحه أولا. لدهشته وجد أنه يحتوي على ملابس. الكثير من الملابس في الواقع. ملابس داخلية وأخرى

خارجية.

هل تعود هي الأخرى للطبيب الذي كان هنا قبله؟

لو كان هذا صحيحا فهذا لغز آخر. قد يترك المرء كتبه خلفه حين يغادر مكان ما، لكنه لن يرحل حتما تاركا ملابسه، وبخاصة تلك الملابس الداخلية والتي بدت كأنها غير مهترئة أو قديمة ليتركها أي شخص وراءه. أخرج كل الملابس من الصندوق فوجد أسفلها سلسة بها بعض المفاتيح وحافظة جلدية. وحين فتح الحافظة عثر بداخلها على بطاقة شخصية وبضع قصاصات ونحو عشرة جنيهات ورقية وبعض الفكه. رفع البطاقة الورقية وقرأ ما بها.

- أشرف سمير الدمرداش.

كانت بالبطاقة الشخصية صورة غير ملونة لشاب بدين قصير الشعر ذو شارب رفيع. كان من مواليد **1335م**، كما هو مدون بها، أي أنه كان أكبر منه بنحو ثلاث سنوات. كان أعزبا وكانت المهنة المدونة في البطاقة هي طبيب بشري.

إنه حتما الطبيب الذي سبقه. الطبيب الذي كربا يرى ترك كل أغراضه ورحل. ترك ملابسه وبطاقته الشخصية ونقوده وكتبه.

هل يفعل أي رجل عاقل شيء كهذا إلا لسبب جلل؟

بالطبع لا.

اقشعر بدنه وهو يفكر في الاحتمالات الأخرى. هل رحل أشرف عن هذا المكان بغتة حتى أنه لم يستطع جمع كل حاجاته قبل أن يذهب.

ربما حدث هذا لو كان يهرب من شيء ما؟

كان هناك احتمال آخر قد يفسر تركه لأغراضه، احتمال مخيف للغاية.

هل قُتل؟!

احتمالان مخيفان! وعليه أن يعرف أيهما قد حدث، فمع كل لحظة يقضيها في هذا المكان يكتشف المزيد من الألغاز المخيفة.

خلف النافذة بدأت السماء تظلم قليلا وقد عادت السحب للتراكم. قرر أن يترك مخاوفه وحيرته مؤقتا وأن يفعل ما كان يفعله قديما حين كان يشعر بالتوتر والحيرة. أن يقرأ رواية خفيفة ليتوه في عوالمها وينشغل بها ولو قليلا عن هواجسه. اختار كتاب وجده في أغراض أشرف. كانت رواية «بداية ونهاية» لنجيب محفوظ. لم يكن قد قرأها من قبل، فتح الرواية وجلس فوق الفراش وأشعل سيجارة أخرى وبدأ القراءة. ببطء كان عقله ينسحب مما حوله ويتوه في ذلك العالم الآخر المثير الذي يجيد نجيب محفوظ صناعته.

حين وصل للصفحة الأربعين وجد قصاصة ورقية مطوية على نفسها بين الصفحات. فضها ببطء وترقب

وهو يحاول تخمين المدون فيها، هل هي ملاحظات حول الكتاب أم خواطر خطها الدكتور أشرف.

لكن المدون فيها لم يكن ملاحظات او خواطر كما ظن فتحي، كانت فقط كلمة واحدة بخط صغير رديء:

- اهرب.

ثم انتبه إلى أنه ليس وحده في الغرفة ذي تلك اللحظة، فحول الفراش من الناحيتين كان هناك رفاقه القدامى قد عادوا ثانية وابتسامة ساخرة ترتسم على وجوههم، ارتعش جسده من هول المفاجأة، ثم تكلم الجميع مرة واحدة في صوت واحد، قائلين:

- أجل أيها الأحمق. اهرب.

***

(11)

قرب المساء اكتشف انه قد استهلك أكثر من علبتين من سجائره في جلسته تلك. ظل الكتاب أمامه على نفس الصفحة الأربعين دون أن يقرأ حرفا واحدا فيه بعدما قرأ القصاصة التي تدعوه للهرب.

كان الظلام يتقدم في السماء حثيثا من بعيد خلف النافذة، وساعدت السحب المتراكمة على حجب الشمس الغاربة فجاء المساء مبكرا. أفاق فتحي من شروده على صوت دقات خفيفة على الباب. انتفض في رعب وكاد أن يصرخ في فزع: «من هناك؟»، لكنه تمالك نفسه بسرعة وقد خمن أن القادم هو عبد النبي حتما وقد جاء ككل ليلة حاملا العشاء. تحرك نحو الباب وفتحه. كان عبد النبي بالفعل وقد ترك صينية العشاء أمام الباب وشرع في هبوط السلم. رفع صوته مناديا:

-لحظة من فضلك يا عبد النبي. أود التحدث إليك.

رمقه عبد النبي للحظة في صمت ثم تحرك عائدا للغرفة، لكنه لم ينس حمل صينية الطعام معه لداخل الغرفة. أشار فتحي الى الطاولة وهو يقول:

-ضعها هنا من فضلك.

وضع عبد النبي الطعام حيث أشار ثم التفت اليه ووقف يرمقه صامتا، ابتسم فتحي له وقال:

- أعلم أنك لا تتحدث، لكن يمكنني فهم لغة الإشارة بصورة كبيرة لحسن الحظ. كان ابن عمي أبكما اصما وكانت وسيلة التواصل الوحيدة معه هي الإشارة.

ظل عبد النبي يرمقه دون أن يبدو على وجهه أي تغيير. فقط عيون ثابتة موجهة له ولا ترمش. لكن فتحي لم ييأس، كان بحاجة لمن يمنحه الإجابات في تلك اللحظة وكان عبد النبي هو كل ما يملك. لذا امسك علبة سجائره وأخرج سيجارة وقدمها له:

- هل ترغب في تدخين سيجارة، يمكنك أخذ سيجارة، أو حتى العلبة كلها لو شئت.

لكن عبد النبي واصل الصمت والجمود، أشعل فتحي سيجارة في عصبية وقال وهو يضعها في فمه:

-أنت من أهل هذه البلدة اليس كذلك؟

هذه المرة هز عبد النبي رأسه موافقا، فاندفع فتحي قائلا في سرعة:

-إذا لا بد أنك تعلم سر ما يدور فيها من أمور غامضة غريبة، أخبرني ماذا يحدث هنا أرجوك، لماذا ينام سكان البلدة بالنهار ويستيقظون بالليل، وما سر تلك الرائحة الغريبة العالقة بالجميع، هل أصاب البلدة وباء او مرض جعلكم هكذا، ومن هي سارة وما الذي تفعله هنا؟ أخبرني باللّه عليك ما سر كل هذا العبث؟ أخبرني قبل أن أصاب بالجنون.

راقبه عبد النبي دون أن يظهر على وجهه أي تعبير، فصرخ فتحي:

-لماذا لا تتكلم أنت الاخر. لماذا تصمت. أخبرني أيها الغبي أيها الأحمق. هل تدبرون مكيدة لي هنا؟

هذه المرة تحرك عبد النبي وغادر الغرفة في خطوات ثابتة دون أن يلتفت إلى الطبيب الذي ظل يصرخ:

- كلا، انتظر لم انتهى من حديثي ولم تمنحني أية إجابة يا عبدالنبي. انتظر ارجوك.

لكن صوت خطواته وهو يهبط الدرج هوما وصل لأذن فتحي، راح يرتشف الأنفاس الباقية في لفافة تبغه في سرعة وعصبية قبل أن يلقيها أرضا ويدهسها في عصبية وكأنما يدهس مخاوفه معها. رمق الطعام بغير اشتهاء ثم تحرك نحو النافذة. وهناك رأي أهل القرية بأجمعهم في الخارج، يحيطون بالوحدة الصحية في ثبات وجمود وفي أيدي أغلبهم مشاعل راحت تتراقص شعلاتها مع الرياح الشديدة. نظراتهم لا حياة فيها. ولولا تأكده من كونهم أحياء لشك في أنهم تماثيل تحمل مشاعل.

شعر بالخوف. كلا لم يكن يشعر الخوف فقط. بل فزع هائل يكتنف جسده ويدفعه للارتجاف، وهو يتخيل أن يقتحم كل هؤلاء المكان فجأة للظفر به، وبينما ارتعشت عيناه راح عقله يفكر في عشرات السيناريوهات لما قد يفعلونه به، عشرات الميتات البشعة تكفل عقله حينها

بتخيلها.

هل يسحلونه حتى الموت، أم يقدمونه لديواناتهم المفترسة لتمزقه بأنيابها.

قد يكونون أكثر رحمة ويقتلوه بطلقة رصاص في رأسه أو حتى طعنة سكين في القلب، وقد يحتجزونه في زنانة كئيبة ويتركوه فيها يتضور جوعا حتى الموت.

تذكر في تلك اللحظة التحذيرات التي طالما رددها القادة الكبار والضباط الصغار في الجيش من أهوال الهزيمة والوقوع في أسر القوات الصهيونية. أخبروهم أن اليهود لا يهتمون بالحصول على أسرى، فالموت فقط هو مصير من يقع في أيديهم، أخبروهم أن طقوسهم الدينية تسمح لهم بامتصاص دماء الأسرى ودعم أحياء بل وصنع الفطائر بدمائهم. ابتسم في تلك اللحظة وهو يتذكر كيف كان خيال قادته محدودا، فما قام به الإسرائيليون به مع أسراهم كان أكثر بشاعة بكثير. تذكر مطارداتهم للجنود العزل بمدرعاتهم ومروحياتهم وغربلة أجسادهم بالرصاص. تذكر الدبابات التي سارت فوق أجساد زملائه وهم احياء لتقتلهم بأبشع طريقة ممكنة وتدفنهم في مكانهم.

كان العدو أكثر شيطانية وكان الضباط أكثر بلادة، ومن دفع الثمن كان الجنود.

كانت الرياح تعوي بالخارج وبدأت نذر المطر الأولى في الهطول. ومن بين الحشد تقدم نحو الوحدة الصحية

ثلاثة أشباح سرعان ما تبين أصحابها. إنه ذلك الصبي ومرافقاه. هل أتوا جميعا من اجل الرجل المريض، تذكر كيف رفضت أوردة الرجل المزيد من المحاليل المغذية ففكر أن أجله قد حان وربما أتوا لحمل جثمانه. تراجع للخلف ليتوارى في ظلام الغرفة. قرر ألا يغادر غرفته حتى يرحل هذا الحشد اللعين. كان قلبه يخفق في عنف شديد حتى راحت عظام صدره تنتفض في قوة. ومن الظلام من خلفه سمع الصوت الساخر:

-الطبيب الجبان.

علم قبل أن يلتفت من صاحب الصوت، إنه الصول إبراهيم مرة أخرى، التفت ليرى من بين دموع الخوف أشباح رفاقه وقد حضروا ثانية. كانوا يقفون في صفين متتاليين في الركن المظلم، وكأنما جاءوا ليكونوا شهودا على جبنه وفزعه. وسمع صوت الصول وهو يقول متحسرا:

-ماذا تفعل يا دفعة، الأعداء في منزلك وأنت تختبأ في فراشك يا لعار الرجال!

ضحك الكل في آن واحد. ضحكوا ساخرين مستهزءين. غطى أذنه بكفيه في قوة وهو يصرخ:

-كفى أيها الملاعين. اصمتوا جميعا. اصمتوا!!!!!!.

لكنهم لم يكفوا. فقط تقدم من الظلام صديقه سعيد المسيري ومازالت الفجوة التي نشأت في صدره وقتلته

موجودة وهمس في أذنه:

- حارب الأعداء يا فتحي. أنت لست جبانا لتختبئ في فراشك يا ولد العم.

ربما لم يكن فتحي جبانا بالفعل، لكنه لا يواجه هذه المرة عدوا بشريا مثله يحمل سلاحا في موادهته. بل يواجه عدوا يجهل غرضه ودوافعه. كان فتحي يواجه خوفه هذه المرة. وفي أذنه وعقله دوت تلك العبارة:

- حتى لو كنت خائفا فسيظل هناك واجبك. هذه الوحدة الصحية هي مسكنك الآن وهناك مريض بحاجة لحمايتك او اهتمامك

لا يدري هل سمع الكلمات الأخيرة حقا أم أنه صوت صدر من اعماقه ليذكره بواجبه. نهض من فوق الفراش وقرر الهبوط، ليرى بنفسه ما يحدث بالأسفل.

تحرك في الظلام وهبط الدرج المعتم. وفي الرواق بالطابق الأرضي كان مصدر الضوء الوحيد غرفة الملاحظة حيث كان هناك مريضه الوحيد. ربما كان مصدر الضوء المصابيح التي يشعلها عبد النبي كل ليلة وربما كانت المصابيح التي أتي بها اهل البلدة. بلغ الباب ونظر الى داخل الغرفة. كان الرجلان والصبي هناك. وعلى الفراش جلس المريض بعينين فقدتا أي بريق للحياة رغم الانفاس التي تتردد في صدره وتحركه صعودا وهبوطا، وبفزع لاحظ فتحي القرد الذي عاد. كان جالسا على فراش المريض فوق قدميه.

متمالكا نفسه بجهد قال بصوت مرتعش:

- ماذا تفعلون هنا؟

التفت الكل إليه. حتى القرد فعل وهو يرمقه بعينيه الصفراوين. تراجع فتحي للخلف في رهبة وأصدر القرد صوتا كالفحيح ثم هبط من فوق الفراش وتوارى خلف الرجلين. بينما قال الصبي:

-جئنا لنأخذه معنا ليعود لداره. اننا نشكرك على اهتمامك به أيها الطبيب، وحفاظك على حياته.

ابتلع فتحي ريقه في صعوبة وهمس:

-لكنه لا زال مريضا. لا أعتقد أنه من الصواب عودته للمنزل في وقت كهذا.

-كلا هذا يكفيه. سيكون في خير حال معنا.

ثم التفت الصبي إلى الرجلين الصامتين العجوزين وقال في لهجة آمرة غريبة:

-دعونا نرحل.

وأمام عينيه المذهولتين، نهض المريض المحتضر وكأنما دبت فيه قوة مفاجئة، وغادر الفراش دون مساعدة ليغادر الموكب الصغير المكان. تحرك الصبي في المقدمة، وتبعه الرجل المريض وفي الخلف الرجلان العجوزان الصامتان دوما. لم يغادر القرد معهم، وهذا أمر توقعه فتحي، كما علم أنه لن يجد القرد مختبئا في

مكان ما في الغرفة. بالفعل بحث عنه في كل مكان في الغرفة لكنه كان قد اختفى، وكأنما تبخر في الهواء.

غادر الصبي والرجال الثلاث باب الوحدة الصحية، ووجد فتحي نفسه يتبعهم والفضول والحيرة يعصفان به وهو يتساءل، إلى اين يرحلون؟!

شق الأربعة طريقهم في وسط الحشد الضخم من أهالي البلدة، بدت وجوه الرجال والنساء الجامدة في ضوء المشاعل التي تتراقص مع الرياح العاصفة من هولها كوجوه شياطين قادمة من سقر، تجمد المشهد تماما للحظات وكأنما تحول الجميع لتماثيل من حجر، ثم مرة واحدة بدأ الجميع في ترديد تراتيلهم الغامضة بأصوات غير مفهومة وبلغة منسية قديمة. في الواقع لو كان فتحي يعلم تلك اللغة لأدرك أن نشيدهم يقول:

آن للغريب أن يعود إلى الديار..

يقوده في الطريق القادم من عالم الظلال.

أعدي أيتها الأرض السمراء له مكانه القديم

وعلى الشمس أن تغيب فالسيد لا يهوى الضياء.

وعلى أبناء الليل الاستعداد لحضوره العظيم.

بدأت السماء في اسقاط المطر الغزير حين تحرك الحشد الضخم وبدأ في الرحيل. قرر فتحي أن يتبعهم هو الأخر. كان يعلم أن هناك سر غامض وراء كل ما يحدث، وقرر

في تلك اللحظة أن يعرفه.

لكن عيونا أربع وزمجرة منذرة أوقفته مكانه. كانا كلبين يبرزان مخالبهما وأنيابهما في وجهه. وكأنما يحذرانه من مغادرة المكان واللحاق بالحشد الراحل.

كانا كلبين يعرفهما جيدا.

تومي وريتشي.

كلبي سارة.

وكانت وظيفتهما في تلك اللحظة كما يرى، منعه من الخروج.

***

ONE PIECE
BOOKS

(12)

غرقت الوحدة الصحية بعد رحيل أهالي البلدة في الظلام والصمت. حتى المصباح الزيتي الذي كان مضاءا في غرفة الملاحظة وجده فتحي مطفئا لسبب لا يفهمه. وبيد ترتجف أشعل فتحي عود ثقاب ليقوده ضوؤه الضعيف نحو غرفته بالأعلى. راحت الظلال على الضوء اللهبي الخافت لعود الثقاب تتراقص على الأرض والجدران في أشكال غامضة مخيفة. ورغم أنه لم يكن الرجل الجبان من قبل ولم يخف الظلام أبدا، إلا أنه في تلك اللحظة راح يتلفت حوله في جنون وكأنما يخشى أن تجذبه من قلب الظلام مخالب شيطانية أو يختطفه مردة من الجان.

بلغ منتصف السلم الخشبي فانتهى عود الثقاب. وعاد الظلام ليغرقه تماما. وبدلا من أن يواصل الصعود دفعه هاجس غريب للوقوف مكانه وهو يشحذ أذنيه. سمع صوت شيء يزحف في الظلام. وكان الأمر المرعب أن صاحب هذا الصوت كما يبدو كان يقترب منه. في اللحظة التالية همس صوت بالقرب من أذنه:

- اصعد أيها الطبيب. الظلام هنا غير آمن.

صرخ بقوة في رعب. وكادت قدمه المصابة أن تخونه ليسقط من فوق الدرج. لكنه أمسك بحاجز السلم بقوة واستجمع قواه وراح يعدو صاعدا. ارتطمت كفه بجدار ما.

وكادت قدمه أن تتعثر بغرض ملقى على الأرض. لكنه لم يتوقف للحظة. واصل الطريق في الظلام نحو حجرته. كان باباها مفتوحا. دلف الحجرة بسرعة ثم أغلق الباب من خلفه. ورغم الظلام إلا أن الضوء الخافت القادم من النافذة جعل الرؤية ممكنة داخلها. لاهثا تحرك نحو النافذة التي راحت الأمطار تضربها بلا هوادة. ومن بعيد ظهرت مشاعل أهل البلدة وهي تبتعد. شعر بالدهشة حين عرف إلى أين يذهبون. لم يكن الحشد متجها نحو القرية. بل إلى طريق آخر يعرفه جيدا لأنه ببساطة اتخذه مع سارة هذا الصباح.

كانوا يتجهون نحو المقابر.

في الضوء الخافت كانت أشباح رفاقه موجودة من حوله. لكنه تجاهلها وساعده على هذا أنهم صمتوا تماما ولم يوسوس أحدهم في أذنه برأيه. حاول إشعال سيجارة، لكنه سعل بقوة وهي ترتعش بين شفتيه. ألقاها دون أن يكملها أسفل قدمه وراح يدهسها بعنف زائد. أدرك أنه لن ينعم بالنوم أو الراحة في هذه الليلة أو الليالي القادمة ما لم يعلم ما الذي يحدث في دير النعمان؟ كان الحل الوحيد لمعرفة ما يحدث بحاجة للكثير من الشجاعة والكثير من التهور.

عليه أن يتبع أهالي القرية.

وماذا عن الكلبين الرابضين أمام الباب اللذين ينتظران تمزيقه لو فكر في المحاولة؟

- نافذة المعمل يا دكتور فتحي. هل نسيت؟

جاءه الجواب هامسا من الركن البعيد. كان صوت الرائد محمد شريف، قائد وحدته العسكرية الشجاع. ومن حوله نظر إليه الرفاق الموتى القدامى في ابتسامة لم يفهم إن كانت تشجعه على القيام بمحاولته المتهورة، أم تسخر منه لأنه يفكر فيها؟

قرر القيام بهذا العمل المتهور، وتحرك نحو الباب على الفور في خطوات سريعة بعد أن ارتدي معطفه الجلدي ليقيه البرد والمطر، تحرك بسرعة وإصرار وكأنما يخشى أن تفارقه تلك الشجاعة التي تجري في دمه الآن لو انتظر في غرفته لبعض الوقت. لم يشعل المصباح النفطي الصدئ، واكتفى بعود ثقاب وهو يهبط السلم. اتجه مباشرة نحو حجرة المعمل وفتح النافذة الوحيدة فيها. كانت تطل على الناحية الخلفية من الوحدة الصحية. وحين أطل برأسه خارجها حمد الله على انها لا ترتفع عن الأرض بأكثر من متر ونصف كي تتحمل قدمه المصابة تلك القفزة.

رفع جسده عبر النافذة وفي اللحظة التالية كان بالخارج وقد غاصت قدماه في الرمال المبتلة بالمطر. توقف للحظة متجمدا في مكانه رغم القشعريرة الهائلة التي اجتاحت بدنه بفعل الهواء البارد الذي يضرب جسده والمطر الغزير الذي يهوى فوق رأسه. كان بحاجة ليتأكد أن الكلبين لم يشعرا به. من حسن حظه أن اتجاه الريح كان يدفع رائحته في اتجاه معاكس للوحدة الصحية لن

يساعد هذا الكلبين على اقتفاء أثر رائحته، كما أنه من العسير عليهما سماع الضجة التي أحدثها هبوطه وهو في الناحية الأخرى من المكان. بعد نحو الدقيقة تحرك من مكانه مسترشدا بالنور الضعيف القادم من السماء.

كان الجو عاصفا وراحت الريح تدفعه بعنف بينما تغوص قدماه كثيرا في الرمال الهشة الموحلة مع كل خطوة يخطوها. اضطر للدوران من بعيد حول الوحدة الصحية ليصل للطريق المؤدي للمقابر. ثم راح يتحرك بصعوبة في خطوات سريعة ليلحق بالجمع الذي اختفى أثره. البرد الشديد كاد أن يجمد أطرافه والمطر الغزير راح يغشى عينيه مما اضطره لأن يمسحها بباطن كفه طوال الوقت. كان قلبه يلهث هو الآخر وكأنما يحتج على تلك المحاولة الخرقاء التي يقوم بها. لكنه كان مدسرا على معرفة الحقيقة.

من بعيد بدأت الشعلات النارية في الظهور. وبعد قليل ظهرت في الظلام وسط الرياح والمطر أشباح حاملها. تحرك بصعوبة وسط الرمال المبتلة وهو يتبعهم من بعيد كي لا يشعروا به، مضى بعض الوقت ثم توقفوا وقد وصلوا إلى منطقة المقابر كما خمن.

توقف هو الآخر مفكرا للحظة في الخطوة القادمة. هل يقترب منهم أم يكتفي بمراقبتهم من بعيد؟

آثر السلامة واتخذ طريقا جانبيا يقود لمرتفع صخري يطل على المكان كله من ناحية الشرق. من هناك

يمكنه أن يراقب ما يحدث دون أن يشعر أحد به.

تذكر حديث سارة وهي تحذره في الصباح من الرمال المتحركة التي تحيط بالمكان. لو وقع في فخها فهو هالك بلا شك. لن يفلح حينها في التصرف بعقل، ولن يجد الحكمة التي تجعله يستلقي على ظهره فوق الرمال في هدوء لترفع جسده ويسبح فوقها كما تقول الكتب. بالطبع كل هذا هراء لا يتحدث به إلا المغامرون أو الأفاقون ولا يصدقه غير الحمقى.

لم يبق أمامه غير أن يدعوا الله ألا يصادفها.

بعد بضع دقائق وصل إلى تلك المنطقة الصخرية المرتفعة. راح يلهث وهو يبحث عن مكان مناسب ليختبأ فيه ويراقب منه ما يدور حوله دون أن يشعر به أهالي دير النعمان. وجد بقعة بين صخرتين ضخمتين تحجبين الكثير من الرياح العاصفة والمطر، وتتيحين له زاوية رؤية ممتازة. انحنى وخبأ أكثر جسده بين الصخرتين ثم راح يراقب الحشد الملتف حول المقابر والبئر القديم في نصف دائرة. بددت المشاعل التي يحملها الكثيرون منهم الكثير من ظلام الليل، ورغم الرياح التي راحت تعوي بعنف في هذا العراء والسماء التي ازداد غضبها فراحت تصب ماءها فوق رؤوس الجميع صبا فلم يبد على أحد من الأهالي أي آثر لهذا. كانوا يقفون في جمود كتماثيل من الصخر.

غمغم فتحي في سره:

-ما الذي ينتظره هؤلاء، وماذا يفعلون في المنابر؟

علم فتحي أن الجواب قد يكون مخيفا، بأكثر مما قد يتخيل.

مضت بضع دقائق أخرى دون أن يتغير أي شيء، ثم سطع البرق في السماء. أضاء العالم كله للحظات قليلة، ثم عاد الظلام وقد دوى الرعد كضربات ملايين المطارق. لكنها كانت كافية لتبث المزيد من الرعب في قلب فتحي.

هذه المرة رأى كل ما يحدث بصورة واضحة للمرة الأولى. الوجوه الآدمية الجامدة والتي اكتست مسحة شيطانية، وعشرات بل مئات الحيوانات التي وقفت بين أقدام الحشد الغفير. في جمود مماثل. كانت حشدا هائلا من الذئاب والكلاب وبنات أوى. حشد من المستحيل أن يجتمع هكذا في مكان واحد. لكن الأكثر رعبا فهو فوهة البئر التي بدأ ضوء أحمر ينبعث منها وكأنما أشعل لسان البرق نارا غامضة داخلها.

ثم بدأت الطبول تدوي.

***

(13)

كان الأمر كالكابوس.

في البداية اندفعت هبة عاصفة من الرياح الباردة ثم اشتعل لسان ضخم من اللهب في صفحة السماء للحظات. بدا وكأن الطبيعة غاضبة لما يدور أو تحتفل بما يحدث. لا يعلم فتحي ما الحقيقة لكنه في تلك اللحظة كان يشعر بالذعر، ولولا بعض الفضول في نفسه لولى دبره هاربا.

صرخت بنات آوى كلها في نشيد جنائزي حزين، وعوت الذئاب معها في عواء منذر، ثم أتى دور البشر. رفع الكل رأسه نحو السماء وفي صوت واحد بدأوا في ترتيل نشيد غير مفهوم بلغة قديمة منسية. نفس أنشودتهم الغامضة التي رددوها أمام الوحدة الصحية في الليل.

بالطبع كان وقع النشيد في نفس فتحي مخيفا. وككل مرة كان يتساءل، أي لغة هذه؟

كانت لغة قديمة لم يعد أحد من البشر يتذكرها الآن. لغة قديمة سبقت الهيروغليفية بعقود طويلة. لغة تعلمها بعض البشر من كائنات سكنت العالم قبله. ولو كان فتحي يعرف معناها لزاد هلعه كثيرا ولما بقى في مكانه لحظة واحدة.

كان يجهل ما يقال. وكان هذا من حسن حظه.

ازداد الضوء الأحمر القادم من أعماق البئر شدة، وصعد رويدا رويدا ليبلغ السحب كعمود من نار. ومن قلب الوهج انفصلت أشباح آدمية بدت في البداية وكأنها مخلوقات من نار، لكنها وفور ابتعادها من ضوء البئر كانت تتحول لأشكال آدمية. كانوا رجالا حليقي الرؤوس. يرتدون ثيابا ناصعة البياض. تذكر فتحي تلك الهيئة التي شاهدها على جدران المعابد في الأقصر حين زارها وهو في الصف الثالث في الجامعة. كانت رحلة تثقيفية تحملتها وقتها وزارة الإرشاد القومي لحث الشباب على معرفة تاريخ مصر القديمة والتعلق بأمجاده.

احتشد الكهنة في صفين حول البئر. وارتفع صوت التراتيل التي يرددها أهالي دير النعمان وكأنهم يرحبون بالقادمين. ثم هوى من السماء لسان من البرق نحو فتحة البئر قبل أن يختفي في جوفه. مضت لحظات ثم ظهر من قلب البئر شبح آدمي جديد. لم يميزه فتحي في البداية وظن في البداية أنه كاهن شبحي آخر. لكنه فور أن تحرك بين صفي الكهنة علم أنه لأنثى. أنثى لا تنتمي لهذا البلد ولا تتحدث لغة هذا البلد. أنثى قادمة من بلاد اجنبية تقع خلف البحر المتوسط.

كانت سارة.

وكانت ترتدي ثوب الكاهنات هي الأخرى، وقد التفت حول عنقها قلادة ضخمة من الذهب.

وبعينين لا تصدقا ما تراه رأى فتحي جميع الكهنة

يركعون لها في خضوع وهي تسير بينهم كإحدى الملكات القدامى. تحركت لبضع أمتار مبتعدة عن البئر ثم التفتت للوراء نحو البئر وتوقفت في جمود. في تلك اللحظة تجمد المشهد تماما. توقفت دقات الطبول القادمة من مكان مجهول، ومعها توقفت التراتيل، وكفت الحيوانات عن العواء. بينما التف الكهنة جميعهم نحو فتحة البئر.

تساءل فتحي في رعب ما الذي ينتظره هؤلاء؟

ثم أتت الإجابة المرعبة.

اختفى الضوء الأحمر الدموي القادم من جوف البئر فعاد الظلام. ورغم هذا تمكن فتحي من رؤية الدخان الكثيف الذي راح يصعد من قلب البئر ويتكاثف في بطء ليتشكل في هيئة مخلوق عملاق مصنوع من دخان مظلم. كان طوله يناهز الأمتار الثلاثة طولا، ورغم كل هذا الظلام استطاع فتحي ان يتبين كيف يبدو هذا المارد، رأي الأطراف الطويلة والعنق الطويل الذي ينتهي برأس كلب. ومن بقعة مظلمة في عقله الباطن راح خاطر يلح عليه أنه يعرف من يكون.

ركع الجميع أمام ذلك المارد. وارتفع العواء المشترك لبنات آوى والذئاب معا. مضت نحو الدقيقة على هذا الوقت ثم كانت سارة أول من نهض من الجميع. تحركت نحو الرجال وأمسكت بالشعلة التي في يده ثم تحركت نحو الصخرة الضخمة المليئة بالنقوش القديمة ومست

الأرض بالمشعل فاشتعلت فيها النار على الذور رغم البلل والمطر والرياح العاصفة، وصنعت دائرة عظيمة من اللهب. وعلى ضوء اللهب بدا العملاق واضحا هذه المرة تماما.

الجسد الضخم الأسود بعضلاته البارزة، والقدمان المشعرتان المقوستان من الركبة للخلف، كأقدام الحيوانات، والرأس الشبيه برأس كلب والعينان الصفراوان المتوهجان في ضوء النار. ظل المارد جامدا في مكانه كالتماثيل، بينما تراجع أتباعه للوراء وعادوا ليرددوا ترانيمهم الغامضة في صوت أعلى، وصوت الطبول الغامضة يرتفع مع تراتيلهم هو الأخر.

نقل فتحي عينيه نحو المنصة الحجرية التي تتوسط دائرة النار، فشاهد للمرة الأولى الجسدين الراقدين فوقها متجاورين. جسد الصبي وجسد العجوز المحتضر. كانا عاريين تماما من ملابسهما رغم البرد الشديد. تحركت سارة نحو دائرة النار واخترقتها دون أن يبدو عليها التردد أو الخوف. لم تمسها النار بأي سوء. ارتفعت التراتيل أعلى وأعلى. ومن مكانه أدرك فتحي ما يدور حوله.

إنها طقوس وثنية أو شيطانية.

راحت سارة ترقص حول النصب الحجري، في رشاقة وليونة غريبة. مضى الوقت طويلا قبل أن تنتهي رقصتها الغريبة التي ذكرته بما يقرأه عن رقصات النساء في

أحـراش افريقيـا عنـد إقامـة طقوسـهم السـحرية.. رفـع المـارد يـده عاليـا للمـرة الأولـى وأشـار بإصبـع أسـود طويـل نحـو الصبـي. هنـا صمـت الـكل بينمـا تحركـت سـارة نحـو الجسـد الصغيـر الراقـد فـوق ظهـره فـي سـكون، وقفـت أمامـه فـي جمـود للحظـة ثـم رفعـت يديهـا ليبـدو فـي كفهـا خنجـر طويـل مقـوس.

هنـا سـطع البـرق مـرة جديـدة وهـي تهـوي بـلا تـردد نحـو قلـب الصبـي.

صرخ فتحي في ذعر في صوت لم يتجاوز فمه:

-لا تفعليها.

لكنها فعلتها بلا تردد.

وسـطع البـرق ثانيـة ليـرى فتحـي نافـورة مـن الدمـاء تندفـع مـن قلـب الصبـي لبضـع سـنتيمترات فـوق جسـده. وفـي اللحظـة التاليـة نهـض العجـوز المحتضـر فـي نشـاط. ورفـع عقيرتـه نحـو السـماء وبمفـرده بـدأ فـي ترتيـل النشـيد الوثنـي.

ردد الباقـون خلـف العجـوز الأنشـودة الغامضـة، لكـن سـارة لـم تتوقـف. تحركـت نحـو العجـوز ولوحـت بخنجرهـا الغريـب فـي الهـواء، ثـم أمسـكت شـعر الرجـل بيدهـا الحـرة وأمالـت رأسـه للخلـف، فتـح العجـوز فمـه ومـد لسـانه خـارج فمـه، وبـلا تـردد هـوت سـارة بالخنجـر نحـو اللسـان الممتـد أمامهـا فقطعتـه. صرخـت الجمـوع فـي جنـون، وانطلـق واحـد مـن

بنات آوى نحو اللسان المقطوع والتهمه على الدور. وفي اللحظة التالية اندفعت باقي بنات آوى نحو جثة الطفل القتيل وراحت تنهشها في ضراوة.

كان هذا أكبر من أن يحتمله فتحي. قرر الهرب من هذا المكان الدموي الملعون.

كلا، لن يهرب من هذا المكان فقط. بل سيهرب من البلدة كلها.

وقبل أن يتحرك سمع صوت غريب الطويل رفيقه وهو يقول:

-رأيت ما يكفي يا فتحي، حان وقت الهرب يا صديقي قبل أن يشعروا بك.

شهق في فزع هذه المرة بصوت مرتفع والتفت للخلف بسرعة. لم ير شبح أحد من رفاقه، لكنه رأي القرد، ذا العيون الصفراء وهو يراقبه في غضب حقيقي.

هب من مكانه في رعب وتراجع بجسده للخلف دون ان يبعد عينيه عن القرد الشيطاني وهو يتوقع أن يهاجمه او ينبه ذلك الحشد الشيطاني إلى مكانه. لو طاردوه فلن يتوانوا بلا شك عن قتله وتقديمه كقربان جديد لذلك المارد الشيطاني.

تراجع في الظلام أمام القرد بضع خطوات قبل أن تتعثر قداماه في حجر ما، ليهوي من فوق المكان المرتفع وجسده يتدحرج على الأرض في سرعة وعنف مؤلم.

راح جسده يتدحرج هابطا للحظات قبل أن يستقر فوق طبقة هشة من الرمال، حاول أن ينهض ليواصل الهرب لكن جسده بدأ في الغوص داخل الرمال، ليدرك في رعب أنه وقع في بحر من الرمال المتحركة.

حاول أن يتمالك نفسه وأن يستعيد هدوءه وألا يقوم بأي حركة غير ضرورية كي لا يغوص أكثر في الرمال، ورغم هذا ظل جسده يغوص ببطء.

أدرك أنها النهاية هذه المرة. سيموت في قبر لن يعلم مكانه أحد. تذكر أمه ورفاقه الذين ظهرت اشباحهم من حوله الآن وهم يرمقونه في هدوء وكأنما ينتظرون موته.

اختفى جسده كله في قلب الرمال ولم يبق غير رأسه وعنقه.

ثم رأي سارة على حافة الرمال المتحركة وهي ترمقه في جمود في زيها الفرعوني القديم وقلادتها الذهبية تلمع فوق صدرها، قبل أن تقول:

-لقد حذرتك من الرمال المتحركة. ألم أفعل؟

وظلت في مكانها تراقبه في هدوء ورأسه يغوص ببطء في قلب الرمال.

ثم جاء الظلام

***

(14)

حين أفاق لم يكن الظلام الذي توقعه هو أول ما رآه.

كان هناك ضوء ساطع.

ضوء صباح مشرق.

نظر فتحي حوله في حيرة وهو يتساءل هل يرى الموتى نورا في ظلمات القبور بعد الوفاة، قبل ان يدرك أنه لا زال في حجرته في الوحدة الصحية.

آخر ما يتذكره كان غرقه في بحر الرمال الهواء وهو يغادر صدره، والظلام يملأ عينيه، وهو يجاهد بيأس ليكتم أنفاسه قبل أن تنهار مقاومته لتملأ الرمال الناعمة فمه وأنفه ورئتيه ومعها ذهب وعيه للأبد كما توقع.

نهض من فوق الفراش في حيرة وهو يتساءل كيف عاد ثانية إلى هذه الغرفة.

وجد نفسه يفكر في احتمالين.

الأول أنه قد مات بالفعل وأنه قد تحول إلى شبح، مثلما صار رفاقه في وحدته العسكرية أشباحا. لكنه في الصباح كما يرى ومن النادر أن يرى أشباحهم في ضوء النهار. كان بحاجة لأن يتأكد من هذا الاحتمال. تحرك نحو الطاولة الخشبية في حجرته وأمسك بشفرة حادة يستخدمها في حلاقة ذقنه ثم شق بحدها باطن أحد أصابعه.

كان الألم عنيفا، فأطلق صرخة، وهو يراقب ذيط الدم الذي تفجر من إصبعه. كتمه بباطن كفه الأخر وقد تأكد أنه لا زال حيا. الأشباح لا يتألمون ولا تدميهم الجروح بالطبع.

تحرك نحو النافذة الزجاجية ونظر إلى الصحراء الممتدة أمام النافذة، وهو يفكر في الاحتمال الثاني والأخير.

هل كان يحلم؟

ارتجف وهو يتخيل تلك الفكرة. سيكون هذا أقوى حلم حدث في حياته كلها.

لكن شيئا في عقله رفض أن يكون ما حدث له مجرد حلم أو حتى كابوس. مستحيل أن يكون ما رآه بالأمس مجرد وهم. الحشد الوثني، والمارد الشيطاني، والطفل الذي مزقت سارة جثته ثم نهشتها بنات آوى، والعجوز الذي صار سليما كالجرس في نفس اللحظة.

ثم ماذا عن غرقه في بحر الرمال والرمال التي اختنق بها؟

إنه مازال يتذكر كيف اختنق بالرمال. لقد كان الألم وقتها حقيقيا تماما.

هل يكون كل هذا مجرد حلم أو وهم اختلقه عقله؟

لو كان هذا صحيحا فلابد أن يعترف أنه قد أصيب بالجنون تماما هذه المرة ليختلق عقله كل هذا. ربما كانت رؤيته

لأشباح رفاقه الذين قتلوا بداية جنونه، ولأنه لم يتلق العلاج المناسب فلابد أن حالته في تدهور.

كان بحاجة لدليل قوي. ولهذا فقد بدل ملابسه بسرعة وهبط نحو الطابق السفلي بخطوات سريعة متجاهلا الألم القادم من قدمه المصابة. لو كان موهوما فلابد أن العجوز المحتضر مازال بغرفة الملاحظة.

لكن غرفة الملاحظة كانت فارغة، دار فتحي فيها كالمجنون وهو يصرخ:

- أين أنت أيها العجوز اللعين، وأين ذهبت. أين أنت؟

ثم خرج من الغرفة في ثورة وصرخ:

- عايدة

خرجت عايدة من غرفتها ورمقته في هدوء صامت دون أن تجيب. ارتعشت شفته وهو ينظر إليها في شك قبل أن يسألها:

- أين ذهب العجوز؟

- لقد رحل.

- أعلم أنه رحل. ولكن لماذا رحل. هل مات مثلا؟

تنهدت في بطء قبل أن تجيبه:

- لقد شفي من مرضه يا دكتور ولهذا ذهب.

-شفي من مرضه؟ إنه رجل يحتضر والمحتضرون لا يستعيدون عافيتهم بتلك السرعة أو الطريقة.

- وما أدراني؟!

- إذا متى ذهب؟

- حين جئت هذا الصباح لم يكن هنا، ولهذا خمنت أنه قد غادر بالأمس ليلا بعد رحيلي. اعتقدت أنك كنت موجودا حين حدث هذا.

رأى الخوف في وجهها، وبفطنة علم أنها لا تكذب، لكن الارتعاش الخفيف في شفتيها أنباه أنها لا تخبره بالحقيقة الكاملة. إنها تمنحه بعض الحقيقة وتخفي البعض الآخر.

تأمل عينيها الباهتتين وملامحها السمراء الجامدة وبشرتها المشدودة التي دبغتها شمس الصحراء القاسية، وهو يتساءل، أهي في صفه أم تراها تشترك مع أهل البلدة في تلك الجرائم اللعينة، وهل هي في المكان مجرد ممرضة وظيفتها أن تساعده لو احتاجها، أم أن دورها الحقيقي هنا هو مراقبته؟

-أريد مغادرة هذه البلدة الآن، هل يمكنك تدبر عربة تغادر البلدة.

قالها في هدوء وبطء، فأجابت على الفور:

-لا يوجد عربات في البلدة بأكملها يا دكتور، العربات

الوحيدة التي كانت تأتي إلى هنا كانت تجيء مرة واحدة في بداية الشهر وهي تحمل المؤن الضرورية لدير النعمان والبريد ومرتباتنا. بعد ذلك تنقطع صلتنا بالعالم الخارجي، ظننتك تعلم هذا حين جئت.

بعناد صاح:

-لكنني لا أريد البقاء في هذه البلدة الملعونة لحظة واحدة، أريد أي شيء يخرجني من هنا، أرجوك يا عايدة، ساعديني.

-تقبل أسفي يا دكتور، ليس لدي ما أقدمه لك.

قالتها في جمود وعادت لحجرتها، فرمر في حنق، ثم انسحب عائدا إلى حجرته، راح يدور فيها كالمجنون وهو لا يدري ما عليه القيام به، كان يشعر بالعجز، بالحصار في قلب مكان ملعون، لكن أكثر ما يثير جنونه هو عدم قدرته على التأكد من حقيقة ما حدث بالأمس والأيام التي قبلها. لو كان ما مر به قد حدث بالفعل فالمفترض أنه قد غرق في بحر الرمال، المفترض أنه ميت، وبقاءه على قيد الحياة حتى هذه اللحظة يعني أنه قد تم إنقاذه، فهل فعلتها سارة؟

ولماذا تفعل شيء كهذا؟

ولماذا أعادته لفراشه وحجرته وكيف فعلتها؟

بل وكيف لا يجد على ملابسه وجسده أي أثر للرمال والمطر والوحل الذي لوثه بالأمس؟

أسئلة تكاد أن تفجر رأسه.

الأكثر رعبا أن يكون كل هذا وهم يختلقه عقله، هذا يعني أنه عقله قد تجاوز الخطوط الحمراء كلها، وأنه يعدو حثيثا نحو الجنون.

تمنى التحدث في تلك اللحظة إلى أي شخص. إلى أمه إلى حبيبته التي خانته، أو حتى إلى أشباح رفاقه. المهم أن يتكلم، وألا يكتم تساؤلاته في جوفه. استلقى على الفراش ونظر إلى الطاولة بجواره حيث وضع رواية بداية ونهاية لنجيب محفوظ، التقط الكتاب وفتحه ليجد نفسه أمام تلك الورقة أو الرسالة الغامضة التي تركها له طبيب الوحدة الصحية الذي كان هنا قبله.

اهرب.

راح يقرأ الكلمة عشرات المرات، وهو يتساءل عما واجهه ذلك الطبيب ودفعه لترك مثل تلك الرسالة بين كتبه، وكيف جاءه اليقين أن هناك من سوف يأتي بعده ويفتش في كتبه ويعثر على ذلك التحذير.

لكن ماذا لو لم يكن هذا هو التحذير الوحيد الذي تركه، ماذا لو كان هناك المزيد من الرسائل الغامضة بين متعلقات الطبيب الذي أصبح يشك الآن في أنه قد اختفى أو قتل.

واتته الحماسة فنهض على الفور، اتجه أولا إلى الكتب التي عثر عليها، وفي جنون راح يفتحها ويفتش بين

أوراقها قبل أن يلقيها جانبا في لامبالاة واهمال، وحين انتهى كانت الكتب في مكان حوله، لكنه لم يعثر فيها على أي شيء ذا بال. فقط بعض الصور المقصوصة من المجلات الفنية للفنانة فاتن حمامة. كما يبدو كان الطبيب مغرما بها وبصورها.

نظر فتحي حوله وهو يفكر في الخطوة التالية، ثم اتجه بصره نحو سطح الخزانة المعدنية. اتجه إليها وراح يفتش بباطن يده عله يعثر على شيء لا تراه عيناه. كان هناك الكثير من الغبار، لكن في الزاوية اليمنى من سطح الخزانة كانت هناك شيء ما. ظنه في البداية أحد الكتب. لكنه سرعان ما أكتشف أنه دفتر ذو غلاف من الورق المقوى ذي لون أزرق. وبخط منمق في منتصفه مكتوب كلمة واحدة:

-مذكراتي.

بقلب يخفق من الإثارة تراجع فتحي بظهره للخلف حتى بلغ حافة الفراش وجلس عليه والمذكرات مازالت في يده يتأملها في إثارة ممزوجة بخوف مبهم. مسح الغبار عن الغلاف بباطن كفه، وأدار الدفتر السميك أمام عينيه، ثم قرر أن يفتحه.

سمع طرقات مباغتة على باب الغرفة فأجفل من المفاجأة، لكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه وهو ينهض ويتجه للباب وهو يهتف:

-أنا قادم.

لابد أنها عايدة، وربما كان هناك أحد المرضى. حين فتح الباب وجد سارة أمامه، بفتنتها وسحرها وابتسامتها المشرقة وعينيها الغامضتين. كانت مفاجأة حذيقة له. رمقها في رهبة وخوف في صمت. ظلت ترمقه بجفون لا ترمش لبرهة قبل أن تقول:

- ألن تدعوني للدخول، اعتقدت أنه ستتصرف كجنتلمان حقيقي ولن تتركني هكذا أمام الباب.

كان يشعر بالخوف منها، والممتزج بالكثير من النفور، وكان قلبه يخفق رغما عنه. كان عليه أن يرد عليها بأي شيء، ووجد نفسه يقول:

- معذرة آنسة سارة، لكني لا أعتقد أن الغرفة تليق بدعوتك لدخولها.

- يمكنني أن أنتظرك بالأسفل لنسير قليلا.

كان هذا آخر ما قد يفكر في فعله في تلك اللحظة فأسرع يجيب:

- من فضلك يا سارة. ليس الآن، قدمي لمصابة تؤلمني وأفضل أن أحظى ببعض الراحة الآن.

لم تفارق الابتسامة وجهها وكأنما رفضه لدعوتها لا يعني الإهانة لها وقالت في استسلام:

- كما تشاء يا دكتور عبد الوهاب، لقد أتيت إلى هنا لأطمئن عليك بعد أحداث الأمس. لقد أنقذتك من موت

محقق لو كنت تذكر، ورغم هذا لم أنتظر أن تشكرني.

هوى جوابها عليه كالصاعقة. إذن فلم يكن يهذي. إنها تعترف له بأن ما واجهه بالأمس كان حقيقة وليس وهم أو حلم. تدلى فكه السفلي في بلاهة. وارتعش جفناه، وراح يرمقها في خوف للحظات وهي تنظر إليه في هدوء وابتسامة خفيفة ساخرة مرتسمة على طرف شفتيها، وكأنما تستمتع ببث الرهبة في نفسه، في النهاية تحركت نحو السلم وهي تقول ببطء دون أن تنظر له:

-ربما لا زلت متعبا وبحاجة لبعض الراحة، ليس من السهل أن يمر المرء بتجربة الغرق في بحر الرمال، لكننا سنتحدث في وقت لاحق. فمازال هناك ما يجب أن تعرفه.

قالتها وقد بلغت بداية السلم ثم استدارت نحوه وأكملت:

-بالمناسبة تلك المذكرات التي عثرت عليها منذ دقائق، سوف تنفعك كثيرا، حاول أن تقرأها بتمعن وأن تعمل عقلك، فبعدها عليك أن تخوض اختيار مهم. إلى اللقاء يا دكتور عبد الوهاب.

في تلك اللحظة راح قلبه يخفق بقوة وسرعة مجنونة حتى اعتقد فتحي أنه قد يتوقف تماما في أي لحظة.

***

(15)

من مذكرات الدكتور أشرف سمير الدمرداش.

- لا أهوى كتابة المذكرات ولم أفكر في مثل هذا العمل يوما وكذلك لا أدري ما هي الطريقة الصحيحة لكتابتها، رغم انني أهوى القراءة وأقرأ من الكتب والمجلات والصحف ما يقع منها بين يدي في نهم عجيب. في الواقع لا أدري ما الأمر المهم الذي قد يستحق أن يسجله طبيب شاب يعمل في وحدة صحية لبلدة منسية من العسير أن تعثر عليها في أي خريطة.

ربما لو أنني اكتشفت مثلا مرضا جديدا هنا أو طريقة مبتكرة للعلاج لكان تدويني للمذكرات أمرا مفهوما. لكن كل هذا لم يحدث، فلماذا أجهد نفسي في كتابة مذكرات عن حياة رتيبة، لن تتعدي الاستيقاظ من النوم وتناول الطعام ثم النزول للعيادة لعلاج بعض المرضى الفقراء من أمراض محددة معروفة، ثم الصعود ثانية لغرفتي بعد الظهيرة للقراءة والحصول على بعض الراحة، بعدها أعود ثانية للعيادة مع غروب الشمس لنحو الساعة لعلاج المزيد من المرضى المسائيين قبل أن ينتهي اليوم في البلدة التي تهوى النوم مبكرا، والاستيقاظ قبل صلاة الفجر.

بالطبع لو كان الأمر هكذا لما فكرت لحظة في كتابة مثل تلك الأوراق التي لا أعلم إن كانت ستفقد أو تحترق

أو ستجد اليد التي تقرأها لتعلم أي أحداث غامضة مريبة تجري في هذه البلدة، دير النعمان.

أجل، لقد جرت في هذه البلدة أحداث يشيب لها الولدان. ومن سوء حظي أنني كنت هنا، ولهذا لم يكن من العجب أن أصاب ببعض شظاياها.

في البداية دعني يا صديقي الوهمي -الذي لن ألقاه يوما كما أوقن، ولن أعرف من يكون- أقص عليك قليلا عن بلدة دير النعمان.

البلدة هي مجرد واحة صغيرة في قلب الصحراء. أقرب الى محافظة مطروح من الإسكندرية، ورغم هذا فهي لا تتبع أيهما من الناحية الإدارية. اسمها غريب وخاصة وأنني ظننت من اسمها في البداية أني سأجد بها أحد الأديرة القديمة وبعض الرهبان المسيحين والكهنة، لكن العجيب أن أغلب أهلها من المسلمين ولا يوجد أي أديرة أو كنائس بها، فلماذا سموها إذا دير النعمان، لا أدري.

الناس هنا طيبون للغاية، يحيون حياة بدائية بسيطة لا تعرف شيئا من تكنولوجيا وتقدم العالم الخارجي، لا هاتف ولا راديو أو تليفزيون، ولا أجهزة منزل كهربائية أو مطاعم أو صحف أو غيرها.

إنهم يعيشون نفس الحياة التي عاشها أجدادهم واجداد اجداهم منذ عشرات ومئات السنين، بل وربما نفس الحياة التي عاشها أجدادهم منذ آلاف السنين.

يعمل بعضهم برعي الغنم والإبل والبقر وإن كانوا يكرهون أن تدعوهم بدوا، ويعمل البعض الآخر في زراعة النخيل والزيتون والتين، لكنهم لا يعدون هذا من أعمال الفلاحة ويرفضون أن يطلق عليهم فلاحين. بينما تقوم النساء هنا بصناعة الجبن وأعمال النسيج وخياطة الملابس. يقوم بعضهم بمبادلة سلعهم مع بعض أسواق المدن البعيدة بالقمح والدقيق وغيره من مستلزمات البلدة، في الماضي كانوا يقومون بهذا في قوافل صغيرة فوق الأبل، والآن وفي عصر السيارات يستأجرون شاحنات تأتي للبلدة من حين لآخر في مواعيد محددة.

بالمناسبة كانت وسيلة المواصلات الوحيدة المتاحة لي حين أتيت للبلدة أول مرة إحدى الشاحنات التي كانت قادمة لنقل شحنة من الزيتون.

كان من العجيب أن تهتم الدولة بإقامة وحدة صحية في مكان كهذا، لكن هذا ما حدث، ولهذا وجدت نفسي بعد التخرج ملزما بالعمل في تلك البلدة التي بالطبع لم أسمع عنها من قبل.

وكما ذكرت من قبل فالأهالي هنا طيبون للغاية ويرحبون كثيرا بالغرباء، ويقومون بضيافتهم في كرم حاتمي عجيب. كانوا في سرور كبير لمجيء طبيب شاب للبلدة، ولم يتعاملوا معي بتوجس أو رهبة. بل باحترام شديد وسرعان ما وفد الكثيرون للوحدة الصحية طلبا للنصيحة والعلاج وسرعان ما صرت موضع ترحاب في

البلدة كلها.

لم أكن الوحيد الذي أتي للعمل بالوحدة الصحية في دير النعمان، كانت هناك عايدة، ممرضة شابة مات والداها وتزوجت أختها الوحيدة من قريب لهما ذهب بها إلى أسوان حيث يعمل في بناء السد العالي، بينما وجدت عايدة نفسها مطالبة بالذهاب إلى بلدة في قلب الصحراء لتعمل بها. جاءت للمكان قبلي بنحوٍ عامين، والعجيب أنها كما أري قد أحبت المكان بالفعل، والأكثر غرابة أنها قد تزوجت برجل من البلدة بعد ثلاثة شهور فقط من قدومها للبلدة.

الأيام هنا متشابهة بصورة تثير الجنون في البداية وخاصة لمن هو قادم مثلي من القاهرة وهي مدينة لا تعرف النوم أو الهدوء، لكن الغريب أن المرء سرعان ما يعتادها مع مضي الوقت ولا يعدها مثيرة للملل والتذمر كما يشعر في البداية.

مضت نحو أعوام أربع على هذا الحال الرتيب في البلدة، دون أي حدث جديد يعكر صفو مياهها الرتيبة ثم ظهرت سارة.

***

(16)

- كان ظهورها مريبا، مفاجئا، وغير مفهوم. ادعت في البداية أنها باحثة في العلوم الإنسانية أو الأنثروبولوجي كما يدعونها في الغرب، وأنها هنا لتقوم بأبحاث عن الواحات المصرية وعادات وتقاليد أهلها، وأنها اختارت دير النعمان لأنها تتمتع بالأصالة ولم تغيرها روح الحضارة والمدنية الحديثة بعد. راحت تدور في المكان كالنحلة، تدخل كل بيت، وتظهر في الطرقات وتتحدث إلى الجميع. تحضر حفلات الزواج وحفلات السبوع للأطفال ومناسبات العزاء.

ولأن أهل البلدة يمتازون بالبراءة والطيبة فلم يرتاب فيها أحد. من بعيد رحت أراقبها وأتتبع أخبارها ببعض العجب والكثير من الشكوك. إنها أمريكية في أرض مصرية في وقت صارت فيها أمريكا الشيطان الأعظم في أدبيات السياسة المصرية وقد راح عبد الناصر يهاجمها بلا هوادة في كل خطبة يلقيها وكل مؤتمر خارج مصر يحضره.

والعجيب أنها جاءت إلى البلدة برفقة كلبين ضخمين كالغيلان، كلبين قبيحين من المستحيل أن يحبهما شخص عاقل، لكنها كان تتحرك برفقتهما طوال الوقت.

في البداية اعتقدت أنها قد تكون هنا للقيام بأعمال الجاسوسية، لكن سرعان ما طرحت هذا التفكير عن عقلي، من يرغب في التجسس سيفعل هذا بالقرب

من المواقع العسكرية أو حتى المناطق المأهولة ليدرس المجتمع عن كثب، ولن يأتي لبلدة منسية لا قيمة لها من الناحية العسكرية أو الاستخباراتية أو الأمنية بأي شكل كان.

هي إذا قد تكون صادقة في زعمها بأنها تقوم بدراسة المكان وسلوك أهله.

حتى ذلك الوقت لم أدري الحقيقة.

ثم جاءت اللحظة المتوقعة، وجدتها ذات صباح بانتظاري في غرفة فحص المرضى، كانت بصحبة طفل مصاب بالتهاب في الحلق وقد جاءت مع أمه لتطالبني بالاعتناء به. وبعدها تعارفنا جيدا وصرنا أغلب الوقت سويا.

أخبرتني أنني المثقف الوحيد في المكان الذي يمكنها الحديث معه في شؤون علمية أو ثقافية، الرجل الذي لا زال يذكرها بالعالم الخارجي الحديث المختلف تماما عن عالم الواحة. كما أن اتقاني للإنجليزية كان يريحها كثيرا وخاصة أنها كما تدعي لم تتقن العربية بعد بصورة كافية لتقيم حوارا كاملا مع أهالي البلدة.

ورغم كل تساؤلاتي وشكوكي فإنني سرعان ما سقطت في شباكها، كانت جميلة للغاية، فاتنة أمريكية شقراء بنكهة الحلم الأمريكي، وسرعان ما وجدت نفسي أفكر كيف ستكون الحياة معها في بلاد الأحلام حين تنتهي من مهمتها هنا ونسافر سويا لعالمها الجديد، بلاد العم سام، رحت أفكر في الراتب الضخم بالدولار الأخضر

والسيارات الفارهة والحياة في بيت ريفي ذي حديقة ضخمة، رحت أتخيل ابننا الأكبر الذي سأسميه باسم أبي الراحل، أما الطفلة الصغرى فقد تطلق هي عليها اسم بريجيت على اسم أمها كما أعتقد.

كنت وقتها أحيا في وهم كبير، أو لنقل أني كنت مجرد شاب أحمق، طبيب غر صغير سقط في حبائل الجمال الغربي، ولهذا ومع ثورة الخيالات الحمقاء لم ألحظ تلك التحذيرات البسيطة من حولي والتي كانت تومض بالحاح منذ البداية كأجراس الإنذار.

في البداية لم ألحظ كيف راح أهالي البلدة يختفون في النهار وينشطون في الليل، لو كنت ذكيا لأدركت منذ اللحظة الأولى أن هناك خطب ما، وخاصة أني أعلم أنهم يتسمون بالنشاط ويستيقظون دوما مع بزوغ الفجر وينامون مباشرة مع صلاة العشاء. نفس السمة التي تميز المجتمعات النائية والريفية، لكن أن يتبدل الأمر فهذا مريب بالطبع.

الملاحظة الثانية كانت توقف مؤذن البلدة عن المناداة للصلاة. ورغم أن مسجد البلدة البسيط كان في الناحية الأخرى من المكان، ورغم أني في الواقع لست ملتزما بأداء الفروض الدينية في موعدها، إلا أنني لاحظت الأمر بغير اهتمام كبير وقتها، وحين سألت عايدة عن سر هذا، أجابتني في اقتضاب أن المؤذن الضرير والذي يساعده ابنه المصاب ببعض العته في بلوغ سقف المسجد لينادي للصلاة أصابه المرض.

العجيب أنني لم أتوقف طويلا عند إجابتها الغير كافية، فلو كان مريضا فلماذا لم يستعن بي أحدهم لعلاجه وخاصة أنه أحد مرضاي المعروفين، والأمر الآخر لماذا لا يقوم بدوره أحد رجال القرية الآخرين، فحتما لن تتعطل الصلاة لمرض المؤذن!

وكالعادة كنت أحمقا حين لم أعمل عقلي وقتها!

الملاحظة الثالثة هو توقف المرضى فجأة عن ارتياد الوحدة الصحية، لم يعد هناك أطفال مصابون بالنزلات المعوية والبرد والسعال. ولم تعد هناك نساء مصابات بالأنيميا وفقر الدم، ولم يعد هناك كهول وشيوخ مصابون بارتفاع ضغط الدم أو أمراض البروستاتا وغيرها.

كل هذا اختفى مرة واحدة. العجيب مرة أخرى أنني سررت بهذا قليلا في البداية، وأنا أعتقد أن هذ سيتيح لي المزيد من الوقت للقراءة.

أما الأمر المريب الرابع، فهو أنني قد صرت أغرق في النوم فور غروب الشمس في كل يوم ولا استيقظ قبل منتصف نهار اليوم التالي.

هل كنت أحمقا لأتغافل عن كل تلك الملاحظات لمريبة المتزامنة، أم أن غشاوة كثيفة على عقلي منعته من التفكير والشك؟

لكن الشيء الذي لم يتبدل كان سارة. اعتادت أن تأتي

إلـيّ فـور انتصـاف الشـمس فـي كبـد السـماء. تمنحنـي ابتسـامتها المشـرقة وتغيبنـي عيناهـا فـي عوالـم سـاحرة مـن الأحـلام العذبـة. تتحـدث بـلا انقطـاع عـن سـحر الشـرق وجمـال الصحـراء ودفء البلـدة وعراقـة أهلهـا وعذوبـة الحيـاة البدائيـة فـي البلـدة، وأنـا غائـب عـن كل هـذا فـي التعبـد فـي محرابهـا والغـوص أكثـر وأكثـر فـي بحـور هواهـا وعشـقها.

اعتدنـا السـير فـي الصحـراء والعجيـب أنهـا دومـا كانـت تذهـب بـي إلـى مقابـر البلـدة، وحيـن سـألتها ذات مـرة عـن سـر ولعهـا بالمـكان منحتنـي إجابـة فلسـفية :

-لأن الموت هو بوابة الخلود الحقيقية.

ولأننـي أحمـق فلـم أنتبـه لسـلوكها المريـب وخاصـة فـي المقابـر.

لمـاذا تتجمـع حولهـا الـكلاب وبنـات آوى، ولمـاذا يتمسـحون بقدميهـا ولا يهاجموهـا ويستسـلمون لأناملهـا الرقيقـة فـي دعـة وكأنهـم حيواناتهـا الأليفـة؟

مـا الـذي كانـت تفعلـه خلـف شـواهد القبـور حيـن كانـت تلـح علـيّ فـي الوقـوف بعيـدا وعـدم اللحـاق بهـا معللـة ذلـك بأنهـا بحاجـة لبعـض الخصوصيـة لتمـارس رياضـة التأمـل فـي هـذا المـكان المثيـر؟

ثـم دعتنـي بعدهـا ذات يـوم لصعـود التـلال المواجهـة للمقابـر، وهنـاك شـاهدت لدهشـتي بعـض التماثيـل الفرعونيـة القديمـة وأعمـدة وجـدران حجريـة عليهـا نقـوش

قديمة أغرقت الرمال بعضها ونجا البعض الآخر منها وظل قائما.

أخبرتني أن المكان كان معبدا قديما تمارس فيه طقوسا سرية قديمة لعبادة إله قوي قديم. ولأن المعبد متوار تماما بين التلال المحاطة بالرمال المتحركة ،ولأنه لم يذكر في أي مخطوطة قديمة فلم يكن هناك من يبحث عنه أو يعرفه. أخبرتني أن رجال البلدة لا يحبونه، ويخشونه ويصرون أنه في الماضي كان مأوى لشياطين ولهذا كان محرما على أبناء بلدة دير النعمان الذهاب لهذا المعبد، لكنها ومنذ اكتشفته راحت تتردد عليه خلسة لتدرس النقوش المدونة على جدرانه وتسجلها في أوراقها. ادعت أنها درست الهيروغليفية في أحد الصفوف الدراسية في أمريكا، مثلما ادعت أنها جاءت بي للمكان لأنها تثق بي ولأنها بحاجة لمن يشاركها بهجة هذا الاكتشاف المثير.

قادتني إلى هناك بضع مرات وهي تتحدث في حماس عن الديانات القديمة والقوى الغامضة القادمة من أزمنة سحيقة تسبق التاريخ المكتوب. تحدثت عن كائنات نسيها البشر بالغة القوة والبطش خافها البشر ولم ينجحوا في تجنب شرورها إلا بعبادتها. ثم راحت تصب اللعنات على كهنة رع وأمون الذين حاربوا أتباع هذه الديانات حتى اضطروهم للرحيل الى الوديان المهجورة والصحاري البعيدة ليقيموا طقوسهم السرية بعيدا عن العيون المتربصة.

كانت تشير الي بعض النقوش الباهتة وهي تؤكد لي أن أتباع هذه الكائنات لا زالوا موجودين حتى الآن وأنهم تعلموا على مر القرون الحفاظ على أسرارهم في انتظار اللحظة المناسبة التي ينهض فيها سادتهم وآلهتهم القديمة ليعود البشر جميعا لإتباعهم ثانية وعبادتهم.

هراء مسل، هكذا كنت أسمعها في صمت وأنا غارق في تأمل عينيها الزرقاوين وأنا أرى أنها كالكثير من الغربيين تؤمن بالقوي الغامضة وتصدق في الخرافات القديمة، بل وربما كانت واحدة من هؤلاء الأتباع المهووسين بالديانات القديمة.

كنت قد قرأت في مجلة المصور تحقيقا عن الجماعات الغربية التي تحاول إحياء عبادة الآلهة المصرية القديمة. هناك مثلا جماعة «أدجار كيسي» والذي سمى نفسه بالنبي الأمريكي، والتي يبلغ عدد أتباعها الآن نحو ثلاثة مليون شخص حول العالم. هؤلاء يومنون أن أسرار الكون ومن بينها علوم أطلانتس محفوظة في صندوق مخفي أسفل أبو الهول. ولهذا يتعبدون في كل عام بين يدي أبو الهول أو في حجرة خوفو السرية. هناك كذلك الجماعة الضخمة الملقبة بالصليب الوردي والتي تأسست في القرن السادس عشر في المانيا، ويؤمن اتباعها بالفلسفة القديمة ويحجون للهرم الأكبر في كل عام حيث يحاولون ممارسة طقوسهم الغامضة في غرفة خوفو من أجل البحث عن الأسرار القديمة.

ربما كانت سارة واحدة من أتباع تلك العقائد المختلة،

لكن ما الضرر في هذا؟

المهم أن تكون معي وتحبني، فلتتبع الشيطان نفسه طالما أن هذا لن يفرقنا.

كنت طفلا ساذجا بأذنين كبيرتين وذيل أسفل ظهري طويل!

كنت حمارا حينها ولهذا لم أشك فيها.

***

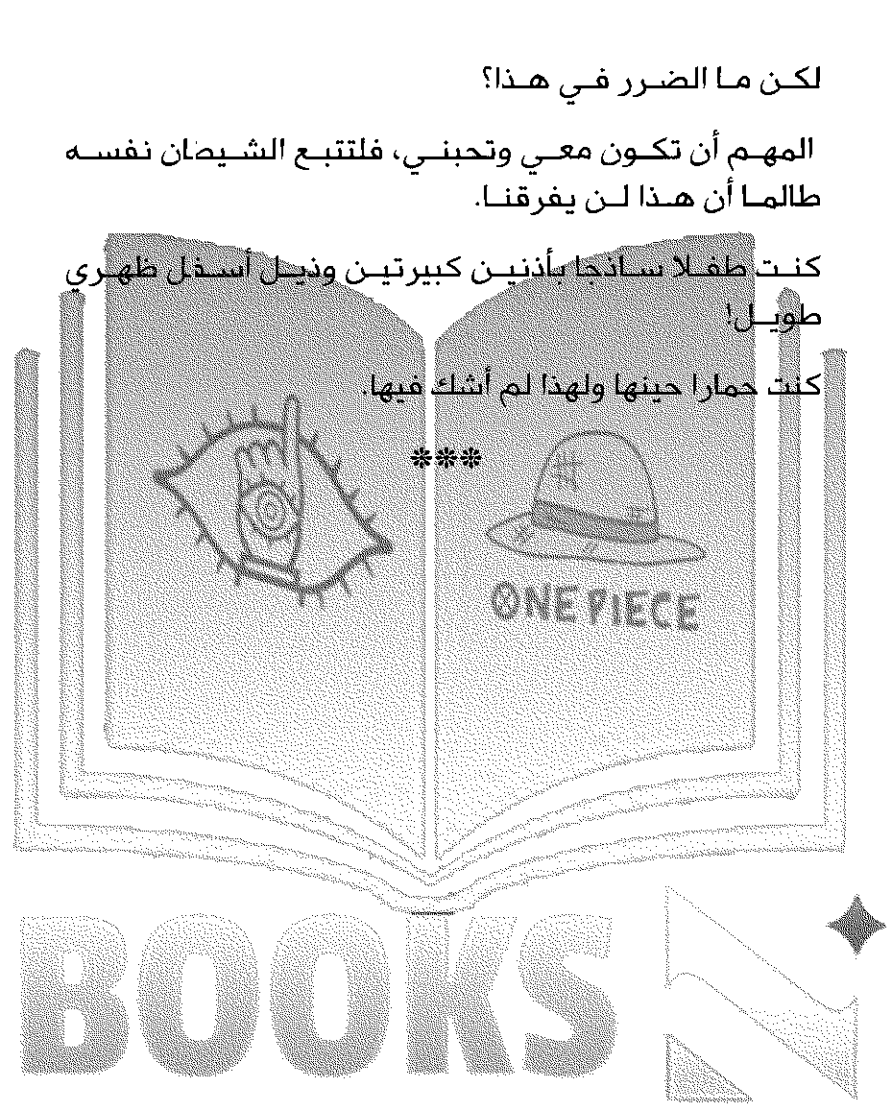

(17)

- احتاج الأمر لنحو ثمانية عشر يوما حتى يأتي المريض الأول منذ توقف أهل البلدة على ارتياد الوحدة الصحية.

كان الوقت قرب منتصف الليل، في تلك الليلة لم يأت عبد النبي بالطعام كما اعتاد أن يفعل منذ أتيت للعمل للبلدة. في الصباح كانت تأتي عايدة للعمل كل يوم ومعها إفطاري، وبعد صلاة العصر يأتي عبد النبي بطعام يكفي لوجبتي الغداء والعشاء. حاولت منذ اليوم الأول إعطائهما بعض النقود ثمنا لهذا الطعام لكنهما رفضا في حسم وأخبروني أن أهالي البلدة متكفلون بطعامي طوال الوقت إكراما لي.

كنت أشعر بالجوع وقتها، وكان عجيبا ألا أكون نائما بعمق في ذلك الوقت كما صار يحدث منذ بضعة أسابيع. وعلى ضوء مصباح زيتي حاولت التشاغل بالقراءة، مضى الوقت ببطء قبل أن أتسمع الطرقات القوية على الباب، كان عجيبا أن يلجأ أهالي القرية للوحدة في مثل هذا الوقت، فمهما كان الوضع ملحا لم يفكر أحدهم في القدوم للوحدة طلبا لمشورة طبية في منتصف الليل.

بدلت من ملابسي وهبطت. كان هناك أربعة أشخاص. ثلاثة رجال وصبي صغير. لم أعرف الصغير لكن الرجال كنت اعرفهم جيدا. وكان وجودهم أمامي في تلك

اللحظة أمر عجيب. فالثلاثة قد بلغوا من العمر عتيا وقد تجاوزوا جميعا التسعين من العمر. الثلاثة في الواقع طالما قمت بعلاجهم من قبل من أمراض مزمنة لا علاج لها، جعلتهم مقعدين حتى صار من العسير أن يقدر أحدهم على الذهاب لقضاء حاجته دون مساعدة.

الآن أراهم بمفردهم أمامي في منتصف الليل، اثنان منهم في كامل صحتهم يتعاونان في حمل الثالث، بينما يتقدمهم الصبي وجسده مشدود في ثيرات غريب وكأنه تمثال آدمي. وضعوا الثالث على الفراش ثم راحوا يرمقوني في نظرات غريبة غير آدمية. كنت أشعر أن هناك ما يخيف في وجوههم الجامدة، لكني ذهلت في معرفته. انتظرت أن يتحدثوا ويخبروني سبب زيارتهم فلم يتكلموا، وحين بدأت الحديث كان الصبي هو الذي تحدث قائلا:

-أبقه حيا. إنهما يومان فقط ما يحتاجه، وسوف نأتي لنأخذه في اليوم الثالث. لكن لا تدعه يموت قبلها.

ثم انصرفوا بعدها مخلفين وراءهم رائحة كبريتية عنيفة ممتزجة برائحة عضوية متعفنة أتذكرها جيدا خاصة أنني طالما شممتها في مشرحة المستشفى وكلية الطب. ورغم ذهولي مما يحدث فقد قمت بواجبي في الاعتناء بالرجل رغم غرابة المهمة، كان المريض ويدعي الحاج عاطف يحتضر بلا شك. وقد كان هو مصدر الرائحة العضوية. إن أعضاؤه الداخلية تتحلل بلا شك.. لم يكن هناك الكثير مما يمكن فعله له، فلم أعطه غير بعض

المحاليل ثم عدت لغرفتي وتركته للصباح.

لم أر الدهشة على وجه عايدة في الصباح، ثم جاءت سارة وخرجنا سويا لبعض الوقت حيث ذهبنا للمقابر مكانها المفضل وعدنا بعدها. لم يأت عيد النبي بطعام الغداء والعشاء كاليوم السابق، وكان من حسن حظي أني احتفظت بما تبقى من طعام الإفطار والا قضيت تلك الليلة جائعا كاليوم السابق.

قرب منتصف الليل سمعت جلبة بالأسفل، هبطت لأنظر ما الذي يحدث فوجدت باب الوحدة الصحية الخارجي مفتوحا رغم تأكدي من أنني أحكمت اغلاقه، وفي غرفة الملاحظة كان هناك العجوزان والصبي يلتفون حول الحاج عاطف وبجواره وقفت امرأة شابة تتلو فوق رأسه صلوات غامضة بلغة لم أتبينها.

كانت سارة. وحين انتبهوا لوجودي اندفعت نحوي سارة بابتسامة مريبة وأخبرتني أنها تعرف الحاج عاطف وأنها هنا من أجل الصلاة له. كنت أشعر بالدهشة، لقد كانت هنا بعد الظهيرة، ولم تفكر في زيارته والآن تأتي في منتصف الليل كي تصلي من أجله وتتمنى له الشفاء؟!

رحلوا بعدها. فأحكمت إغلاق الباب وصعدت لحجرتي في توتر. لم تكن هناك رغبة لدي في النوم فعدت لاستكمال قراءة كتاب لم أنته منه. وبعد نحو الساعة ارتفعت في الظلام من حول الوحدة أصوات ترانيم غامضة قوية، فأسرعت نحو النافذة لأرى أغلب أهالي

القرية وقد التفوا حول المكان وراحوا ينشدون ترانيم غامضة لم أفهم حرف منها وإن شعرت بالخوف من وقعها. المخيف أني رأيت من مكاني الحاج عاطف وهو يقف خارج مبنى الوحدة الصحية ويردد معهم الترانيم الغامضة رغم أن مفتاح الباب الخارجي في جيبي وقد أحكمت بنفسي اغلاق الباب.

كان الأمر مخيفا وبدت الترانيم كصلاة وثنية من تلك التي نقرأها في القصص الأجنبية. هاتف غامض بداخلي دفعني للتراجع للخلف فعدت لفراشي وأنا أرتجف خوفا، حتى انتهت تلك الطقوس الغامضة وعاد السكون للمكان كله، فغبت في النوم، في نهار اليوم التالي لم يحدث أي جديد، فقط عاد عبد النبي بعد العصر للمكان ومعه طعام الغداء والعشاء. وكما كان يحدث من قبل وقرب صلاة العشاء عاودتني الرغبة قوية في النوم فنمت مبكرا. في الصباح اهتممت بتزويد الحاج عاطف بالمحاليل كما اعتدت أن افعل وانا اتعجب انه، لم يمت رغم ضعفه الشديد كما جاءت سارة بعد العصر وصلت كما تزعم من أجل المريض ثم انصرفت دون أن تدعوني للخروج زاعمة أن لديها عمل ما، وكما حدث بالأمس تناولت طعام العشاء ثم غرقت مباشرة في النوم.

في اليوم التالي لم أجد الحاج عاطف في الوحدة الصحية، أخبرتني عايدة أنه قد رحل مع أهله، بالأمس. لم أعر الامر اهتماما حقيقيا حينها وتناسيت ذكرى تلك الليلة الغريبة واحداثها العجيبة.

مضى أسبوع ثم تكرر ما حدث قبل أسبوع، لم يأت عبد النبي بطعام الغداء والعشاء ولم اخلد يومها للنوم مبكرا، وقرب منتصف الليل سمعت الطرقات على باب الوحدة وهناك وجدت صبي أخر وثلاث رجال في أرزل العمر. هذه المرة كان الحاج عاطف أحدهم وكان قويا سليما كالجرس. بالطبع ما أراه لهو معجزة لا تصدق. الرجل كان يحتضر منذ أسبوع واحد، وعضلات جسده كلها كانت في ضمور شديد فكيف استعاد عافيته وصحته بتلك السرعة!

الأمر يحتاج لمعجزة أو سحر. حاولت التحديث معه فلم يرد عليّ واكتفى بالنظر لي. وتكلم الصبي الجديد وهو يطالبني بالعناية بالعجوز المحتضر الجديد لثلاثة أيام ثم انصرفوا. كانت بذور الشك تورق في نفسي وتزدهر.

أولا هناك أمر رهيب يحدث بالقرية له علاقة بهؤلاء الشيوخ المحتضرين.

ثانيا سارة متورطة في الأمر بصورة ما.

ثالثا هل يدس عبد النبي لي مخدر أو منوم ما في الطعام لأنام كل ليلة بعد العشاء؟ ولماذا يفعل؟

عند تلك النقطة قررت الانتباه لكل ما يحدث من حولي، وأن ألتزم الحذر، وأن أحتفظ بشكوكي كلها داخلي حتى أتأكد. في الليلة الثانية وجدت سارة في منتصف الليل في حجرة العجوز مع الباقين وهي تردد نفس

الصلاة الغامضة من أجله وقرب منتصف الليل التف أهالي القرية كلهم حول المكان وراحوا يرددون الصلاة الغامضة، اليوم الثالث لم أتناول من الطعام الذي جاء به عبد النبي وتأكيدا لشكوكي فلم أشعر برغبة في النوم المبكر، وقرب منتصف الليل تكرر حشد الليلة السابقة والترانيم الوثنية الغامضة. عند تلك النقطة كنت قد تأكدت من أن عبد النبي يدس لي بالفعل المخدر في الطعام. وفي الليلة الثالثة عاد الحشد لكنه هذه المرة جاء ليصطحب العجوز المحتضر الجديد معه. ولأني أتميز بالفضول قررت أن أتبع أهالي البلدة من بعيد. كانوا يتجهون للمقابر. ومن بعيد رأيت ما كاد أن يقلتني من الفزع.

هؤلاء القوم لا يقومون فقط بطقوس وثنية كما اعتقدت.

انهم يقيمون الطقوس لاستدعاء شيطان قديم

ويقدمون الصبية قرابين له!

و....

***

ومن باب الغرفة تناهت إلى أذنيه في تلك اللحظة طرقات خافتة مترددة.

وضع كراسة المذكرات بجانبه وتساءل. هل عادت سارة ثانية؟

لكنها كانت عايدة. تعجب من أنها لا زالت في العمل رغم أن النهار قد ذهب لكنه اكتفى بالنظر إليها في صمت منتظرا أن تتحدث.

وبعينين داميتين مليئتين بالدموع نظرت إليه في تردد قبل أن تقول

- معذرة يا دكتور، لكني في مشكلة كبيرة ولا أعلم ماذا أفعل!

***

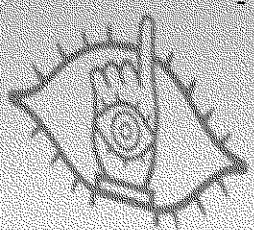

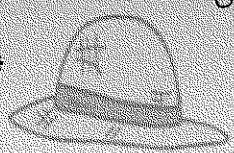

BOOKS

(18)

كانت عايدة في تلك اللحظة في ذروة انهيارها وضعفها. دعاها فتحي للدخول للحجرة فلم تتردد. جلست على مقعد خشبي ودفنت وجهها بين كفيها وراحت تنتحب في قوة. ذهب في هذا الوقت كل الجمود والغلظة اللذان طالما اتسمت بهما في السابق. دارت في رأس فتحي عشرات الاحتمالات، هل تعاني من مشكلة مع زوجها، أم مشكلة صحية تعانيها، أم تراها مشكلة تتعلق بتلك اللعنة التي حاقت بالبلدة. ام أنها تعاني من مشكلة نفسية؟

احتمالات كثيرة، وليس أمامه غير أن ينتظر حتى تهدأ ليفهم منها الحكاية كلها. لاحظ أن أشباحه قد ظهرت ثانية، وقد التفوا حول عايدة وراحوا يرمقونها في ثبات. تجاهلهم فتحي تماما، وحين هدأت عايدة قليلا قدم لها كوبا من الماء تناولته من يده وارتشفت جرعة صغيرة ثم قالت:

- إنه ابني يا دكتور. ابني لبيب. سوف يأخذونه. سوف أفقده للأبد.

قال فتحي في تعجب:

-مهلا يا عايدة. لست افهم. من هؤلاء الذين ينوون أخذ طفلك ولماذا يفعلون. أريد أن أفهم!

صرخت في حقد:

- الملاعين يا دكتور. الملاعين أهل البلدة.

بدأت لمبة إنذار حمراء تومض في رأسه، فقال في حذر:

- وهل لسارة علاقة بالأمر؟

رمقته عايدة في أمل بينما راح أشباحه يصفقون وكأنما هتف بالإجابة الصحيحة، وهتفت عايدة في غل كبير:

- إنها تلك اللعينة، كل هذا الخراب حل بالبلدة مع قدومها المشؤوم. إنها شيطانة حقيقية.

راحت كل اشباح رفاقه تشير نحوها في انتصار وكأنما تؤكد كلامها وقال فتحي في بطء وهو يتذكر جثة الصبي المذبوحة وسط المقابر والتي راحت بنات آوى تنهشها، حتى اختفت تماما في أحشاءها:

-هل سيختطفون ابنك؟

- أنت لست تفهم يا دكتور. إنهم يسيطرون على الصبية بصورة شيطانية. حتى يصير الصبي تابعا لهم يقوم بملء ارادته بما يطلبوه منه.

- حتى الآن لم تخبريني من هم؟

- أهالي البلدة كلهم. لقد تغيروا وصاروا يتبعون سارة وشيطانها الرجيم الذي تتبعه، أنت لا تعلم حقيقتها إنها كافرة لعينة.

كانت الحقيقة الآن تسطع كالشمس، لكن عقل فتحي المجهد كان بحاجة لفهما ببطء فغمغم وهو ينهض من مكانه ويقترب منها:

- وماذا عن زوجك؟ لماذا لا يحمي ابنك. لماذا لا ترحلون عن المكان فورا لو كان الحفاظ على سلامة طفلكم غير ممكنة.

رمقته بعيون لا ترى تقريبا من البكاء قبل أن تقول منتحبة:

- زوجي؟ لقد صار زوجي واحدا منهم، إنه في هذه اللحظة مصدر الخطر الأكبر على لبيب، طفلي يا دكتور.

-وماذا سيفعلون به؟

ورغم أنه يعلم الإجابة جيدا ومازالت صورة جسد الصبي المذبوح في المراسم الشيطانية ماثلة أمام عينيه إلا أنه سأل السؤال في حذر، فجاوبته بأن عاودت النحيب بقوة أكبر حتى راح جسدها يرتج بشدة وهي تقول:

- ألا تعلم حقا يا دكتور. ألم تخبرك سارة؟ إنهم يقتلونهم يا دكتور. إنهم يقدمونهم كقرابين لشيطانهم اللعين.

مضت نحو الساعة بعد رحيل عايدة وفتحي جالس فوق فراشه يفكر فيما قالته له عايدة وما قرأه في مذكرات أشرف سمير الدمرداش الذي كان هنا قبله. العجيب أن مذكرات الدكتور أشرف اختفت تماما من الحجرة راح

يبحث عنها بجنون ليكملها إلا أنه لم يعثر عليها، شك في أن عايدة قد تكون قد سرقتها لكنه تذكر أنها ظلت طوال الوقت بعيدة عن الفراش في الناحية الأخرى من الغرفة ولم تغب عن عينيه لحظة واحدة، فأين اختفت المذكرات إذا؟

شعر أنه يتورط في شيء خطير أكبر منه، وأنه ليس بمقدوره الوقوف أمامه مفرده أو منعه. بالطبع لن يواجه كل هذا الخطر بقدم عرجاء وجسد هزيل ونفس كسرتها هزيمة مذلة في الحرب.

في تلك اللحظة عادت أشباح رفاقه لتظهر في المكان، وهتف فيه الرائد محمد شريف قائده في الوحدة العسكرية:

- ماذا تنتظر أيها الغبي؟ الأمر واضح. اهرب.

هتف فتحي في عصبية وهو يسد أذنيه بكفه ويغمض عينيه وكأنما يرغب في ألا يرى أو يسمع شيئا:

-كفي حديثا. اصمت عليك اللعنة أنت الآخر.

اقترب منه سعيد المسيري بنفس جسده الأسمر النحيل، ومال نحو أذنه وهمس:

-أنت لا تعلم الحقيقة كلها يا صديقي. الأمر أخطر مما تعتقد.

فتح فتحي عينيه وصرخ:

- وما الحقيقة التي لا أعلمها؟ هيا أخبروني بها.

لم يجاوبه أحد. ولاحظ للمرة الأولى كيف راحت أطيافهم تهتز وترتعش، قبل أن يختفوا تماما مخلفين ورائهم خيط رفيع كالدخان سرعان ما زال هو الآخر. نهض فتحي من مكانه واتجه نحو النافذة التي حل الظلام خلفها. رمق الأفق المظلم والذي كان للمرة الأولى منذ جاء لهذا المكان غير مغطى بالغيوم والسحب ولا ينذر بالمطر. كان القمر نصف بدر في تلك الليلة، ولهذا راحت ظلال المنازل والأشجار والصحراء ترتسم من بعيد في ظلال رمادية أمام عينيه. غمغم فتحي في سره:

-ما الذي تخفيه تلك البلدة أسفل هذا السكون الزائف.

ومن بعيد رأي ظلال بشرية تتحرك صوب مبنى الوحدة الصحية. دق قلبه في تحفز وهو يراقبهم. كانت ظلالهم واضحة رغم مكانهم الذي ما زال بعيدا عنه. رجلين بالغين وحمار يحمل جسد ضامر، وصبي يرافقهم. هل يكون الصبي ابن عايدة؟

هذه المرة لم ينتظر أن يصلوا لمبنى الوحدة الصحية، بل حزم أمره وحمل المصباح الزيتي في يده وهبط ليكون أمام الباب في استقبالهم. لم يتأخروا كثيرا، وحين وصلوا للمكان رأى الصبي. لم يكن يتعدى الخامسة من عمره بلا شك. ورغم الظلام إلا أنه كان من السهل تعرفه من خلال ملامحه وخاصة أنه يشبه أمه كثيرا. كان يحمل نفس العين السوداء والجفون الكثيفة واستدارة الوجه.

إنه لبيب بلا شك. وحين نظر نحو الرجال الثلاثة الشيوخ عرف من يكون الشخص الذي يحملوه. إنه نفس العجوز المحتضر الذي رآه في بيته قبل بضعة أيام.

هنا قال فتحي في خشونة:

-ماذا تريدون؟

هتف الصبي في جمود:

- اعتني بالشيخ صالح أيها الطبيب.

وضع فتحي يديه على إطار الباب ليمنعهم من الدخول وقال في إصرار:

- وماذا لو أخبرتكم أن هذا غير ممكن. عودوا لبيوتكم مع مريضكم هذا. المكان غير معد لاستقبال مثل تلك الحالات.

لم يبد على وجوه الرجال الثلاثة أي أثر لكلامه، بينما قال الصبي في برود:

- أبقه حيا. إنهما يومان فقط ما يحتاجه، وسوف نأتي لنأخذه في اليوم الثالث. لكن لا تدعه يموت قبلها.

لم يتحرك فتحي من مكانه. كان مصرا على عدم استقبال المريض، وليحدث ما يحدث. مضت نحو دقائق خمس من الصمت والترقب. قبل أن يلحظ فتحي ما يدور في الظلام خلف الرجال الثلاث والصبي. رأي فتحي الشبح الغامض الذي يتقدم نحوه بخطوات غير ثابتة. وبعد

لحظة دب في قلبه الرعب. كان القادم هذه المرة من قلب الظلام ذلك القرد المخيف ذو العيون الصفراء المشقوقة طوليا. فح القرد في وجه فتحي فتراجع بظهره للخلف. تقدم الرجلان بزميلهم الذي يحملانه والصبي حتى بلغوا حجرة الملاحظة فدخلوها واختفوا فيها للحظات ثم عادوا وقد تركوا الشيخ صالح داخلها. كان فتحي عند السلم في تلك اللحظة وهو يراقبهم في خوف حقيقي وعيناه معلقتين بالقرد الذي توقف عند باب الحجرة وراح يرمقه بنظرات منذرة ثم راح يتراجع للخلف ليتوارى في الظلام حين خرج لبيب والعجوزان من الغرفة.

والتفت لبيب الى فتحي وقال:

- اعتن به أيها الطبيب. ولا تدعه يموت.

ودون كلمة زائدة استداروا، ورحلوا عن المكان.

***

ONE PIECE
BOOKS

(19)

من الوهلة الأولى أدرك فتحي أن عايدة لم تحظ بلحظة نوم واحدة بالأمس. وربما لم تكف كذلك عن البكاء، عيناها كانتا محتقنتين وجفناها منتفخين في صورة أهلة سوداء ضخمة، وارتجافة خفيفة تغمر جسدها كله. كانت تعتني بالشيخ صالح في حجرة الملاحظة حين رآها، وقال فتحي في حذر:

-لقد أتي به لبيب بالأمس.

لم تجبه، وإن ارتجفت يدها بصورة أكبر، فاقترب منها فتحي وأردف:

- هل عاد للمنزل بعدها.

هزت رأسها ببطء بالنفي، توقع فتحي ألا تجيبه أكثر من هذا لكنها قالت:

- لن يعود للبيت مرة أخرى، لقد ذهب ابني للأبد يا دكتور، ولن يعود.

- لست أفهم. أخبريني يا عايدة، أين هو طفلك الآن؟

التفتت إليه هذه المرة ودموعها تنهمر بهدوء من عينيها قبل ان تقول:

-الصبي المختار لا يعود ملكا لأهله ولا يعود بعدها لبيته مرة ثانية، إنهم يذهبون به للبئر القديم مع

الشاهدين الكبيرين. سيظل هناك حتى تنتهي الطقوس.

ثم غادرت المكان في عجلة وكأنما تؤثر أن تكون بمفردها، رمق فتحي الشيخ المحتضر وكتم أنفاسه وهو يدنو من جسده الساكن كي لا تتسلل تلك الرائحة العضوية الخانقة إلى صدره، وضع سماعته على صدره وحين اطمأن أن أنفاسه رغم ضعفها منتظمة تنهد في ارتياح وهو يبتعد برأسه ويلتف للخلف ليستنشق هواء أكثر نقاء من ذلك المحيط بالعجوز.

كانت هناك زجاجة محلول مغذي معلقة بأورية الرجل، فتحرك ليغادر الغرفة قبل أن يختنق بالرائحة العنيفة.

كانت سارة في تلك اللحظة هناك في الرواق بانتظاره كما يبدو، وخلفها كلباها الضخمان اللذان أصدرا زمجرة خافتة حين خرج من غرفة الملاحظة وكأنما تذكرا أنه خدعهما في المرة السابقة وغادر الوحدة الصحية من الخلف دون أن يشعرا.

ارتجف للحظة وكأنما رأى شيطانا لكنه تمالك نفسه بسرعة وهو يقول في لهجة اجتهد لتكون باردة:

-لابد أنك هنا لتقومي بصلواتك العظيمة من أجل المريض المحتضر.

تحركت نحوه وأجابت بابتسامة عذبة:

-دكتور عبد الوهاب. هل اعتدت أن تخاطب أصدقاءك بمثل هذا الجفاف؟

شعر بأنه يرى للمرة الأولى في حياته ابتسامة حية رقطاء، كان يبغضها تماما في تلك اللحظة، يبغضها ويخشاها في الوقت نفسه، رغم هذا تمالك نفسه وهو يجيب:

- وهل نحن أصدقاء حقا؟

- وهل فعلت بك شرا يدفعك للشك في ذلك يا دكتور عبد الوهاب؟

وجد نفسه يصرخ في وجهها:

- وماذا عن الدكتور أشرف، ألم يكن صديقك هو الآخر؟

اتسعت ابتسامتها وهي تقول:

- إذا فقط انتهيت من قراءة مذكراته. هذا يسهل الأمر.

نظر إليها فتحي في خوف حقيقي، كان لا يرى هذه المرة فاتنة أجنبية غامضة، بل يرى امرأة خطرة. امرأة شريرة ملعونة، أراد أن يطردها من المكان كله، لكنه خاف في الواقع أن يغضبها في تلك اللحظة، وخاصة وأن كلبيها كانا يرمقانه في تحفز، ولا يكنان له الود الكافي ليرحموه لو أمرتهما بالاعتداء عليه، ورغم هذا قال:

- من أنت وماذا تريدين؟

- ما رأيك أن نخرج سويا وسوف أجيب على كل أسئلتك.

فقط امنحني بضع دقائق من أجل هذا المسكين

قالتها سارة، ثم دلفت حجرة الفحص، وركعت أمام فراش الشيخ صالح. ضمت كفيها أمام وجهها وأغمضت عينيها وراحت بصوت هامس تردد صلواتها الغامضة. انتهت فغادرت الغرفة وتأبطت ذراع فتحي وقالت وهي تقوده للخارج:

-والآن هيا بنا لنستمتع بالتنزه في الرمال أسفل الشمس الدافئة هذا اليوم.

رمق فتحي الكلبين في توجس وغمغم:

-لن يصحبنا رفيقاك هذان.

ضحكت وهي تقول:

-كلا لن يفعلا. أعلم أنك لا تحبهما، ولهذا سينتظراني هنا.

تحركا سويا في صمت نحو الطريق المؤدي للمقابر، لكن سارة توقفت بغتة وهي تقول:

-ما رأيك لو ترى المعبد؟ لقد ذكره الدكتور أشرف في مذكراته بلا شك وأعتقد أنك قد تحب رؤيته.

أجابها في جفاء:

-أعتقد أن هذا أفضل من الذهاب للمقابر ومداعبة بنات آوى.

ضحكت ثانية وهي تتخذ طريق صخري يتجه نحو التلال الصخرية المرتفعة وهي تقول:

- كما تشاء يا دكتور. الطريق من هنا.

تحركا في الطريق الصخري لبعض الوقت في صمت. كان الطقس صحو هذا النهار وقد بددت أشعة الشمس الكثير من برودة الصباح، ولما طال الصمت والخوف والتساؤلات ترتع في صدر فتحي قال لها:

- من أنت يا سارة؟

أجابته في بساطة ومكر:

- لقد قلتها بلسانك، أنا سارة.

- لا أسألك عن اسمك. بل أريد أن أعرف ما الغرض الحقيقي لوجودك هنا، وأرجوا ألا تتحدثي عن الانثروبولوجي، ودراسة عادات الشعوب وكل هذا الهراء. الطقوس التي رأيتها بعيني في المقابر لا علاقة لها حتما بمزاعمك تلك.

نظرت إليه بعينيها الزرقاوين وهي تجيب:

- لكنني لا أكذب عليك في هذا يا دكتور عبد الوهاب، أنا بالفعل باحثة في علوم الإنسانيات، وبخاصة في العقائد الوثنية القديمة والأديان السرية المنسية.

- وأنت هنا لأن دير النعمان مثلا، كانت مركزا لواحدة

من تلك العقائد الوثنية المنقرضة؟

هتفت في خيبة أمل مصطنعة:

- بل كل شبر في هذا البلد أيها المصري، يؤسفني أن أشعر بجهلك بتاريخ بلدك يا دكتور عبد الوهاب. وأنت مولود في أرض الفراعنة. أرض بتاح ورع وأمون وآتون وايزيس وأوزوريس وست وسخمت وغيرهم. أنتم مهد الديانات الأولى على هذا الكوكب أيها الطبيب. ألم تتعلم هذا في المدرسة؟

شعر بأنها تسخر منه، تجاهل هذا وهو يقول:

- بالطبع أعلم كل هذا، ولكني لا أذكر أن هناك ممارسات وعقائد سرية عند الفراعنة. أصغر باحث في علم الآثار سيخبرك بكل شيء عن تلك الالهة والمعتقدات المصرية القديمة.

ارتقيا تبة رملية مرتفعة، قبل أن تقول سارة:

-هناك آلهة ومعتقدات أخرى لم يذكرها كهنة الآلهة الرسميين في الدولة على جدران المعابد والمقابر أو مخطوطاتهم القديمة، ديانات خطيرة وقوية كانت موجودة واجتهد القدماء في طمس آثارها ودفع الجميع لنسيانها لأنهم يخشونها ولأنهم يرغبون في الحفاظ على مكتسباتهم التي ظفروا بها من عبادة آلهة الدولة الرسمية.

- لست أفهم شيئا مما تقولينه.

قالها فتحي في حيرة، فجذبته من ذراعه ليسرع قليلا وهي تتمتم:

-دعنا نرى المعبد أولا وستفهم الكثير هناك.

ارتقيا تلين كاملين قبل أن تظهر أمامها أطلال المعبد. وبعينين مبهورتين راح فتحي يتأمل تلك الأعمدة والجدران ونقوشها الكثيرة التي لم تنجح عوامل العراء وآلاف السنوات في طمسها. كان اغلب المكان مطمورا في الرمال كما يرى، ورغم هذا شعر فتحي بالضآلة وهو يتجول بين ما تبقى فوق الأرض من أعمدة أو جدران، ومن خلفه سمع صوت سارة وهي تقول:

- والآن ما رأيك؟

- مبهر بالطبع. لا أصدق ان معبد عظيم كهذا مطمور في رمال الصحراء ولا يعلم به أحد.

قالت سارة في فخر:

- انتظر قريبا حين نقوم بإزالة الرمال عنه لترى العظمة الحقيقية.

التفت إليها فتحي في استنكار ودهشة وهتف:

- أنتم من؟ يبدو أنك لا تعيين قوانين هذا البلد يا سيدتي. كل تلك الآثار ملك للدولة وهي وحدها لها الحق في الاعتناء بهذا المعبد.

-يبدو أنك من لا يعي حقيقة الوضع هنا يا دكتور.

ثم راحت تدور حول نفسها وهي تشير بكلتا يديها للمكان كله وتقول:

- هذا المعبد أنشأه قبل الاف السنوات اتباع إله قديم. أتباع إله قوي للغاية أخفى كهنة الدولة حقيقته، وحولوه لمجرد إله صغير في معابدهم كي لا يكون له أتباع يهددون عرشهم. أنت هنا في حضرة معبد الأخير. هذا هو معبد أنوبيس أيها المصري. وهذا المعبد ملك لأتباعه فقط وليس لأي واحد آخر.

كان فتحي بالطبع يعرف من يكون أنوبيس. إله التحنيط والموتى في الدولة المصرية القديمة. فهل تزعم تلك المرأة الغريبة أنها هنا لتعيد عبادته ثانية بعد آلاف السنين من انتهاء تلك الحقبة الوثنية من عمر هذا البلد. حمقاء بلا شك سارة، ووجد نفسه يقول ساخرا.

- وأين هم اتباع أنوبيس هذا؟ لقد هلكوا واختفوا مع معبودهم المزعوم منذ الاف السنين.

اقتربت منه بشدة حتى شم رائحة عطرها وهي تجيب بابتسامة واسعة وثقة:

- مخطأ مرة أخرى يا دكتور. أتباع انوبيس لم يختفوا أبدا كما تعتقد. لقد ظلوا موجودين طوال الوقت، متوارين عن العيون في انتظار اللحظة المناسبة وقد صار الكثير منهم في هذه البلدة الآن. دير النعمان كلها من أتباع أنوبيس.

***

راحت سارة تطوف بين جدران المعبد وهي تشير للنقوش المرسومة وتقول في نشوة:

- انظر يا دكتور، هل ترى، هذه عظمة القصة الحقيقية المدونة على هذه الجدران، إنها تحكي عن انوبيس القوي الذي يحكم بمفرده عالمين من عوالم البشر وليس عالم واحد.

كانت النقوش كثيرة جدا، وكان أنوبيس الذي يصوره الفراعنة كرجل برأس كلب أو رأس ابن آوى هو الشيء المشترك في أغلبها. في واحدة كان انوبيس يقف فوق منضدة عليها شخص ميت وهو يدعوه للعودة للحياة فجلس الشخص وقد رفع يديه نحوه في امتنان، في واحدة أخرى كان أنوبيس في مقدمة طابور طويل من الآلهة. هو الوحيد فيها الضخم القوي الذي يسير في عظمة وخيلاء، والباقون يسيرون خلفه في خضوع. اقترب فتحي بعينيه من تلك اللوحة فلاحظ أن أقدام الآلهة كلها مربوطة بالقيود. لوحة غريبة تصور باقي آلهة الفراعنة كأتباع لأنوبيس أو أسرى له.

في لوحة ثالثة كان أنوبيس يجلس على عرشة الذهبي وفي يده صولجانه وبين قدميه قعت حيوانات بنات أوى، وأمامه انحنى له في خضوع أشياء كالظلال الشيطانية، بأقدام حيوانية ورؤوس مخيفة وقد أحاطتها قرون قصيرة وطويلة. من الغريب أن تلك الأشكال تشبه الصورة الغربية للشيطان التي تعود لأيام المسيحية الأولى، الصورة المشتقة من إله المراعي عند الاغريق.

أبعد فتحي عينيه عن الجدران والأعمدة والتفت نحو سارة وقال في هدوء:

- لوحات متقنة وجميلة، لكنها رغم هذا لا تزيد عن حكايات وأساطير لطيفة ولا تعني شيئا.

أشارت سارة للجدران وقالت:

-انظر حولك جيدا يا دكتور عبد الوهاب وحاول أن تتمتع بعقل منفتح، إنها تحكي القصة الرائعة لأنوبيس العظيم.

قال فتحي في إصرار:

- مجرد ميثولوجيا فرعونية، أساطير قديمة عن آلة وثنية لا وجود لها ولا تعني شيئا.

- هل تؤمن حقا أن الآلهة القديمة مجرد قصص وحكايات قديمة لا أصل لها.

أجابها في ثقة وقد بدأ يشعر بألم في قدمه المصابة من أثر الوقوف الطويل:

- يا سيدتي، هذا العالم لا يحكمه غير إله واحد، هذا أساس عقائدي لا جدال فيه.

- هذا ما تقوله كرجل مسلم، لكن هناك الهندوس والبوذيين وأتباع كونفوشيوس والسيخ وغيرهم.

وجميعهم لا يرون الإله الحق كما تراه.

هتف فتحي محتدا:

- ماذا تعنين، هل تعنين أني على ضلال؟

- كلا بالطبع. بل أعني أن فكرة الإله الواحد أو الآلهة المتعددة التي تحكم العالم ليست واحدة عند جميع الشعوب، وكل واحد يرى إلهه الذي يعبده هو الإله الحق وما سواه في ضلال. هنا يأتي السؤال المهم، من من هؤلاء على صواب ومن على خطأ؟

في عصبية أجاب فتحي:

- نحن بالطبع على صواب. إنني كمسلم أتبع دين سماوي يؤمن بالأديان السماوية الأخرى لكنه يكفر بأي دين وثني.

- وأتباع أي دين آخر سيقولون القول نفسه لو طرحت عليهم نفس السؤال.

شعر فتحي أنها تجذبه نحو جدال سفسطائي لا نهاية له، فقال:

- وماذا عنك يا سارة، أي إله تتبعينه وتؤمنين به.

أجابته في بساطة:

-سيدهشك أن تعلم أنني ابنة لكاهن كاثوليكي متزمت. لكنني أتميز بأفق أكثر تفتحا ونظرة مختلفة

فـي الحيـاة والإلـه.

- هل تعنين أنك لا تؤمنين بالإله الذي يعبده أبوكِ.

- بـل أؤمـن بـه تمامـا، أنـا لسـت ملحـدة تمامـا كمـا تظـن، وأعلـم أن هنـاك إلـه عظيـم خلـق كل هـذا العالـم في البدايـة، لكنـي أعتقـد انـه بصـورة مـا صـرف انتباهـه عـن هـذا العالـم ولـم يعـد يعبأ بـه. لنقـل إنـه قـد نسـى هـذا الكوكـب الضئيـل فـي الكـون ونسـى كل مـا عليـه مـن مخلوقـات ضعيفـة مسـكينة.

ارتجـف فتحـي مـن قولهـا، هـذا كفـر صريـح، ورغـم هـذا سـألها ساخرا:

-ولهذا تبحثين عن آلهة أخرى عبدها القدماء لتتبعينها.

-ومـن قـال إنهـا آلهـة؟ يبـدو أنـك لـم تفهـم مقصـدي جيدا يـا دكتـور عبـد الوهـاب. أنـا لا أكفـر بإلـه السـماء، لكننـي كذلـك أعلـم انـه لـن يسـمعني حيـن أناديـه، ولـن يمنحنـي مـا أريـد لـو دعوتـه، أنـا أؤمـن أن هنـاك قـوى عظيمـة قديمـة حكمـت هـذه الأرض قبـل البشـر لحقـب طويلـة، تلـك القـوى كانـت قـادرة علـى قيـادة البشـر نحـو عالـم أفضـل، وبإمكانهـا أن تمنحـه مـا يرغـب فيـه لأنهـا ببسـاطة تعيـش فـي نفـس هـذه الأرض التـي يحيـا عليهـا البشـر وليـس فـي السـماء، تلـك القـوى القديمـة عبدهـا القدمـاء واعتبروهـا آلهتهـم.

-وأنوبيس واحد من تلك القوى.

اتسعت ابتسامتها وهي تجيب في حماس:

بل هو أعظمهم. تخيل واحدا قادر على السيطرة على عالم الأحياء والموتى. هذا عظيم بصورة لا تصدق.

لم يتمالك فتحي نفسه فهتف مستنكرا:

- بل إن هذا هراء تام وجنون.

- ماذا تقول؟

أجابها في غضب وحدة:

- أقول إنك مختلة يا سارة ومن يتبعك مختل مثلك ولا بد أن ينتهي هذا الجنون في الحال.

- أتقول هذا وقد رأيت أنوبيس نفسه في الطقس الأخير.

-حتى لو رأيت ألف واحد مثله، ما تتبعينه في النهاية يا سيدتي مهما تغيرت المسميات مجرد شيطان، ومن الخير أن يوقف أحد ما تقومون به.

نظرت إليه طويلا، قبل أن تقول في توعد:

- ومن سيفعل هذا. أنت؟

- أنا أو غيري، لكن صدقيني كل هذا الهراء سينتهي بلا جدال.

-هل تعلم أن كلماتك تشبه تماما ما قاله الدكتور الدمرداش، لقد كان مثلك واتهمني بالكفر وقتها مثلما فعلت ورفض أن يصدق.

غمغم فتحي في بطء:

- ولهذا قتلتموه.

- بل قتله عناده يا دكتور عبد الوهاب، وأتمنى ألا تستسلم لعنادك مثله. هنا في دير النعمان لا مكان لمن لا يتبعنا.

ارتجف فتحي وهو يفهم تلميحاتها المخيفة وقال بصوت مرتجف:

- هل هذا تهديد؟

استدارت ساره واندفعت لتختفي داخل حجرة مظلمة في أطلال المعبد دون أن تجيبه. إذا لقد انتهى وقت النقاش وقد أطلقت ساره تهديدها الأخير. لم يعد هناك معنى لبقائه داخل أطلال المعبد فاستدار هو الآخر، وقد شعر بثقل جسده وهمومه على قدمه المصابة وببطء راح يتسلق الصخور عائدا إلى الوحدة الصحية بمفرده هذه المرة.

***

(20)

حين عاد للوحدة لم يكن كلبا سارة هناك، كان هذا غريبا، ففي كل مرة كان يخرج فيها مع سارة كان الكلبان ينتظراها أمام باب الوحدة حتى تعود، فهل علما بصورة ما أن صاحبتهما لن تعود فرحلا؟

الأمر عجيب.

لم يجد عايدة هي الأخرى، وكما يبدو فإنها قد رحلت مبكرا للمرة الأولى منذ قدومه للمكان، فرغم أن الوحدة لم تعد تستقبل أي مرضى في الصباح وأنه لا يوجد عمل حقيقي للوحدة الصحية الآن إلا أن عايدة ظلت ملتزمة بمواعيد العمل في القدوم والذهاب.

لابد أنها في أسوء حال ممكن، وبالطبع كان من العسير عليها احتمال فقدان ابنها.

كان مريضه الوحيد على حاله. عجوز محتضر في انتظار معجزته ليشفى من مرضه. وفي مقابل يموت صبي في مقتبل عمره لم يظفر بحظه من الدنيا بعد.

أمر غير منصف أو عادل.

بل هو أمر شرير شيطاني وملعون.

رمق المريض في كراهية وهو لا يدري هل يدرك المريض حقا الثمن اللازم لكي يشفى، وهل يعلم أن حياة طفل ستزهق من أجله؟

لـو كان يعلـم فهـو مثـل سـارة والباقيـن، مجـرد، مجـرم لا يسـتحق أي شـفقة منـه.

وجـد نفسـه يفكـر للمـرة الأولـى فـي فعـل شـرير للغايـة بـدا فـي تلـك اللحظـة وكأنـه الحـل الوحيـد لإنقـاذ لبيـب ابـن عايـدة.

ماذا لو قتل الشيخ صالح الآن؟

وقتهـا لـن يكـون هنـاك معنـى لقتـل لبيـب بـلا شـك وقـد مـات العجـوز.

كان الأمـر بسـيطا والشـيخ أمامـه يرقـد فـي عجـز ولا يقـدر علـى دفـع مجـرد ذبابـة تزعجـه، كل مـا عليـه فعلـه هـو ضـخ الهـواء بمحقـن فـارغ فـي أوردتـه، أو حتـى وضـع وسـادة فـوق وجهـه لبضـع دقائـق وبعدهـا سـينتهي الأمـر.

لكن هل سيعلم أحد بجريمته تلك؟

وكأنمـا هنـاك مـن يقـرأ أفـكاره سـمع بجـوار أذنـه حفيـف مكتـوم غاضـب، التفـت فـي فـزع إلـى مصـدر الصـوت ليتفاجـأ بالقـرد المخيـف فـي الناحيـة الأخـرى مـن الغرفـة وهـو يكشـر عـن أنيابـه فـي غضـب حقيقـي وقـد تحولـت عينـاه مـن اللـون الأصفـر الفسـفوري للـون دمـوي أحمـر.

تحـرك القـرد نحـو الفـراش فتراجـع فتحـي للخلـف وهـو يفكـر فـي فـزع كيـف بـرز القـرد فجـأة مـن العـدم، وهـل كان يقـرأ أفـكاره؟

من خلفه جاءته الإجابة. سمع صوت يهمس في خفوت:

- إنه يعلم ما تفكر فيه ولن يدعك تقتل العجوز. لو كنت مكانك لغادرت الغرفة قبل أن يقوم بإيذائك.

التفت بسرعة ليجد كل أشباح رفاقه هناك، يتراجعون مثله بظهورهم للخلف ليغادروا الغرفة قبله، شعر أنه من الحكمة أن يفعل ما طلبوه منه، ولهذا أسرع مغادرا المكان وهو يراقب مكان القرد المنذر بالشر ثم صعد إلى غرفته.

كان متأكدا أن هذا القرد المخيف ليس أحد الحيوانات، إنه بلا شك أحد الجان أو المردة أو الشياطين، وربما هو هنا الآن لحماية العجائز من أي خطر حتى تتم الطقوس، راوده في تلك اللحظة خاطر مفزع، ماذا لو صعد القرد إليه في غرفته وقرر قتله مثلا؟

كيف يقاوم حينها شيء كهذا وكيف يحمي نفسه منه.

شاعرا بالرعب التقط مصحفه الذي وضعه في حقيبته وهو قادم من القاهرة وفتحه وبدأ يقرأ فيه وهو يرتجف، بالخارج عاد الطقس الشتوي للمكان لتقلباته وأظلمت السماء رغم أن الوقت لازال نهارا بفعل السحب السوداء ونشطت الرياح وهطل المطر بغزارة.

مضى الوقت ببطء وفتحي لا يزال يقرأ في مصحفه، ويشرب أكثر من علبتي سجائر. شعر بعبدالنبي وهو يضع صينية الطعام أمام باب غرفته كالعادة، لكنه لم

يكن يشعر بأي شهية للطعام. راوده في تلك اللحظة هاجس مخيف، أن يقوم أهالي البلدة بتخديره أو تنويمه حتى تتم الطقوس بدس منوم في الطعام متلما فعلوا من قبل مع الدكتور أشرف.

لن يتناول من طعامهم غير الخبز فقط والذي غالبا لن يفكروا في دس أي شيء فيه.

أظلم الفضاء بالخارج أكثر وأكثر مع قدوم الليل وظلت السماء تصب الماء فوق البلدة في جنون دون أن تلوح أي بادرة للهدوء، ورغم الريح التي تعوي وتضرب النافذة الزجاجية بلا انقطاع سمع عواء الذئاب وصريخ بنات آوى قادم من بعيد. تحرك نحو النافذة في خوف فرأى الحشد القادم من البلدة نحو الوحدة الصحية. يبدو أنهم قادمون للقيام بطقوسهم الليلة، دون أن يمنعهم الطقس السيء.

شاعرا بالخوف أحكم إغلاق باب حجرته وجر الفراش بصعوبة ووضعه خلف الباب ليمنع أي أحد من اختراقه لو فكروا في الصعود إليه، ثم عاد لاهثا إلى النافذة.

كان الحشد قد بلغ الوحدة الصحية، وبإيقاع رتيب مخيف بدأوا أنشودتهم المخيفة بتلك اللغة القديمة المنسية، راح فتحي يرتجف وهو لا يدري إن كان هذا بفعل البرد أم هو الخوف.

رأي الشيخ صالح يخرج من باب الوحدة الصحية الداخلي ويتجه نحو الحشد ثم يتوقف أمامهم وهو يردد معهم أنشودتهم المريعة. لاحظ فتحي قدميه النحيلتين

كعودي ثقاب والتي من المستحيل أن تكون قادرة على حمل طفل صغير، ومع هذا ها هو يقف في العراء ثابتا كالطود.

اتجه نحو الكومود والتقط علبه سجائره واستعد ليشعل إحدى لفافات تبغه، كان بحاجة لاستعادة رباطة جأشه، لكنه رأي على ضوء عود الثقاب الرائد الصول إبراهيم النهامي في مواجهته وهو يهتف محذرا:

- خطأ أيها الجندي الأحمق، لا تدع العدو يشعر بوجودك.

قالها ونفخ في عود الثاقب المشتعل فانطفأ، في نفس اللحظة التي شعر فيها فتحي بدفقة الهواء البارد التي أطفأت عود الثقاب وفي الظلام الذي عاد ليغمر الغرفة لم يعد هناك أثر لأشباح رفاقه.

رقد على فراشه وجذب الغطاء فوقه وهو يرتجف، وبكل ما داخله من فزع راح يردد في سره ما يحفظه من القرآن الكريم، تداخلت الآيات في عقله لكنه لم يتوقف، ورغم انصراف الحشد عن المكان وعودة الهدوء بالخارج ظل فتحي مستيقظا أسفل الغطاء في ترقب، لكنه ودون أن يشعر غرق في نوم ثقيل.

***

يعد بضعة أحلام مرعبة أفاق فتحي من نوم مضطرب جعل رأسه تنبض في قوة والصداع المريع ينهش خلايا مخه. أشعل سيجارة وأوقد السبرتاية ليعد فنجان كبيرا

من القهوة، جلس فوق الفراش يرتشف القهوة في بطء وهو يستعيد تفاصيل الأحلام أو الكوابيس التي لم تفارقه في نومه لحظة واحدة.

في واحد منها كان في مكان مضطرم باللهب، وكان جسده هو الآخر مشتعلا بالنار، كان يصرخ في ألم رهيب وكأنه يحترق في الواقع، ومن بين اللهب الذي يحيط به برز مارد مخيف من نار، له جسد ضخم ورأس كلب، وبصوت قادم من قاع جهنم صاح المارد متوعدا:

- اتبعني أيها الفاني أو تهلك.

كان من المستحيل عليه في تلك اللحظة أن ينطق بأي حرف والنار تذوب جسده، في تلك اللحظة شعر أنه الموت، لكنه أفاق بغتة ليُنقذ من معاناته.

في حلم آخر كان راقدا على صخرة ضخمة كالمذبح، كان رجال بلدة النعمان جميعا يحيطون به، ورغم أنه لم ير أي قيود تقيد جسده إلا كان عاجزا عن الحركة تماما. رأي لبيب هناك، وعايدة وعبد النبي والشيخ صالح، ومن قلب البئر خرجت سارة والقرد المخيف خلفها. كانت ترتدي ثوبا كهنوتيا أبيض، كثياب الكهنة الفراعنة، وذي عنقها قلادة ذهبية ضخمة. اقتربت منه بجمود ثم مرة واحدة ضربته بخنجر في يدها وفصلت رأسه عن جسده.

الغريب أنه لم يشعر أنه يموت، وأن رأسه الملقاة على الأرض ظلت ترى وتسمع كل ما يحدث حوله، كانت القبور هناك تحيط بالمكان. تماما كما كانت في العالم

الحقيقي، وأمام أبوابها المظلمة كانت اشباح رفاقه هناك تنظر له في سعادة وتشفٍ. رأي سارة تشير لهم فأفسحوا المكان أمام أبواب القبور لتخرج من قلب القبور المعتمة العشرات من بنات أوى بشكلها المريع المقبض، وكلها اتجهت نحوه على الفور، وفي وحشية راحت تمزق جسده. كان الجميع من حوله يضحكون في سخرية وسعادة، ورغم أن رأسه قد انفصلت عن جسده فقد ظل يشعر بالأنياب المتوحشة التي راحت تمزق جسده البعيد عنه، كان يصرخ في فزع وألم حين شعر باليدين اللتين ترفعان رأسه المقطوع ثم تديرها لتكون في مواجهة وجهه، كان صاحب اليدين هو القرد، وفي تلك اللحظة كان وجهه يقطر بالغضب، ثم قال وهو يضغط الرأس من الناحيتين بعنف كاف لتهشيمه:

-ستموت لو لم تخضع أيها الفاني.

شهق فتحي بقوة ثم صرخ، ليفتح عينيه وهو يتنفس في عنف ولهاث. كان في غرفته المظلمة راقدا على فراشه، وحين استدار للناحية الأخرى من الفراش صرخ في فزع هائل. كانت رأس القرد مقطوعة وملقاة في جانب الفراش وكان وجهها في مواجهته، والدم يقطر منها، قوة مجهولة كتمت صرخته في حلقه حينها، قبل أن يفتح القرد عينيه الصفراوين وينظر نحوه في غضب وكره وهو يقول:

-ستموت لو لم تخضع أيها الفاني.

وحين نجح في إطلاق صرخة جديدة فارق الكابوس هذه المرة بالفعل، لكن قلبه المرتجف ظل يدق بعنف بعدها لوقت طويل. أدرك أنه حلم مركب، حلم بداخل الحلم. أكثر الأحلام وحشية وعنفا. العجيب أنه رغم كل تلك الكوابيس الكافية لتهجير النوم من عينه ليوم كامل كان سرعان ما يعود للنوم ثانية بعدها ليدخل في كابوس جديد، وكأنما تقوم قوى شريرة خفية بإنهاكه وتحطيمه بالكوابيس.

الكابوس الأخير الذي يذكره كان في صحراء سيناء. في وحدته يقاتل مع رفاقه عدوا يفوق قدراتهم. كانت الطائرات تطلق فوق رؤوسهم قنابل مريعة تنفجر عشرات المرات وليس مجرد مرة واحدة، من حوله راح رفاقه يتساقطون، الرائد محمد هاشم وغريب الطويل والصول إبراهيم وجورج ملاك وسعيد المسيري.

كان يصرخ حينها في ألم وعجز وقهر وهو يرى أشلاء رفاقه والدماء تتفجر من حوله مصحوبة بالقذائف وطلقات الرصاص، وفجأة اختفت الطائرات واختفت التفجيرات، ووجد نفسه مرة واحدة وحيدا في الصحراء. يتحرك بضعف شديد والقيظ يحرق حلقه أسفل شمس ملتهبة لا ترحم. أظلمت الدنيا حينها من حوله فتوقف شاعرا بالخوف. وفجأة راحت الجثث الممزقة تخرج من قلب الرمال، جثث رفاقه في الوحدة العسكرية، الكل راح يخرج من قلب الرمال، ورغم إصابات أغلبهم التي لا يمكن بأي حال أن تسمح لهم بالمشي فقد أخذوا

يسيرون نحوه بأطراف ممتدة إليه تريد الإمساك به، قبل أن يقولوا في صوت رتيب:

-ستموت أيها الفاني، انتظر كي تلحق بنا.

ثم شعر بالأيادي التي انبثقت من الرمال أسفل منه وأمسكته من قدميه وقيدته في مكانه حتى بلغ مكانه الرفاق فراحوا يجذبون أطرافه في كل اتجاه وكأنهم يبغون تمزيقه، ومن وسط صراخه ظهر وجه بين صفوف الموتى. كان القرد اللعين. ومرة أخرى أمسك جانبي رأسه بقوة وقال منذرا:

- ستموت لو لم تخضع أيها الفاني.

وكان هذا هو الكابوس الأخير الذي استيقظ منه.

التصرف الوحيد العاقل أمام ما يواجهه الآن هو الهرب.

أشعل لفافة تبغ ثالثة وراح يفكر، هل مازال الهرب ممكنا أم أن الوقت قد فات؟

لكن ماذا عن عايدة التي استعانت به لنجدة ابنها؟ كان يعلم أنه من المستحيل تقريبا أن ينجح في إنقاذ الصبي، إنه في النهاية مجرد طبيب ذو ساق بها إعاقة كبيرة، ولن يستطيع حتما مواجهة بلدة ملعونة بأكملها.

لكن كيف سينجح في الفرار وهو لا يدري كيف وإلى أين يتجه والصحراء الشاسعة تحيط بالبلدة من كل اتجاه ولا توجد وسيلة مواصلات متاحة في البلدة كلها؟

حتى ناصر البربري لن يأتي قبل يومين كما وعده، هذا بالطبع لو كان رجلا شريفا يحافظ على كلمته.

يمكنه أن ينتظر في الوحدة الصحية، يمكنه ألا يحاول التدخل بأي صورة فيما يدور حوله وأن يحافظ على حياته حتى موعد حضور ناصر البربري ثم يغادر المكان بعدها للأبد ولا يعود إليه ثانية.

كان هذا حلا ينطوي على الكثير من الجبن، لكنه لو نجح سيضمن له الحياة.

وجد نفسه يبتسم في أسى، تذكر رفاقه الموتى، تذكر أشباحهم التي تطارده طوال الوقت وكأنما تؤنبه لأنه لم يمت معهم أو لأنه لم يدافع عنهم كما يجب فماتوا هم وعاش هو بمفرده، هل سيحتمل شبح جديد يضاف إلى رفاقه، شبح لبيب الصغير.

- كلا.

قالها وهو يلقي بالسيجارة أسفل قدمه ويدهسها في عنف شديد بقدمه السليمة، ثم يتجه إلى دولاب ملابسه ويبدل ملابس النوم ويفكر في سرعة.

ما الذي يخشاه؟

هل يخاف من الموت؟

وهل كان الموت بعيدا عنه قبل الآن، ألم يواجهه مرارا في قلب الصحراء حين بدأت المعركة، ألم يشاهده في

رفاقه الذين قتلوا أمام عينه وغيرهم، ألم يواجهه وهو تائه في قلب الصحراء قبل أن يعثر عليه البدو وينقذونه.

لقد واجه الموت عشرات المرات ورغم هذا فقد عاش. وربما كان هذا لحكمة كان يجهلها حينها.

ربما ادخره القدر للحظة كهذه، وربما كان الموت هو خير علاج من همومه الكثيرة.

في ركن قصي بعيد عن الشمس في الغرفة ظهر صديقه غريب الطويل في واحدة من تلك المرات القليلة التي يظهر فيها في وضح النهار، رمقه في نظرة أسى قبل ان يهمس:

- كلا أيها الأحمق. لا تفكر في شيء مجنون واهرب.

لكنه ودون أن ينظر نحوه صرخ في عنف:

- كلا.. يكفي كل ذلك الوقت من الهروب.

لقد هرب أمام الإسرائيليين وهرب من القاهرة ليبتعد عن ذكرى خطيبته التي خانته، ألن يتوقف يوما عن الهرب؟

لم تكن عايدة بالأسفل. لم يكن هناك غير المريض. تجاهله فتحي وغادر المكان كله.

وبخطوات واثقة تعرف طريقها تحرك في إصرار وسرعة رغم قدمه المصابة.

كان متجها للبئر.

سوف يحاول انقاذ لبيب.

***

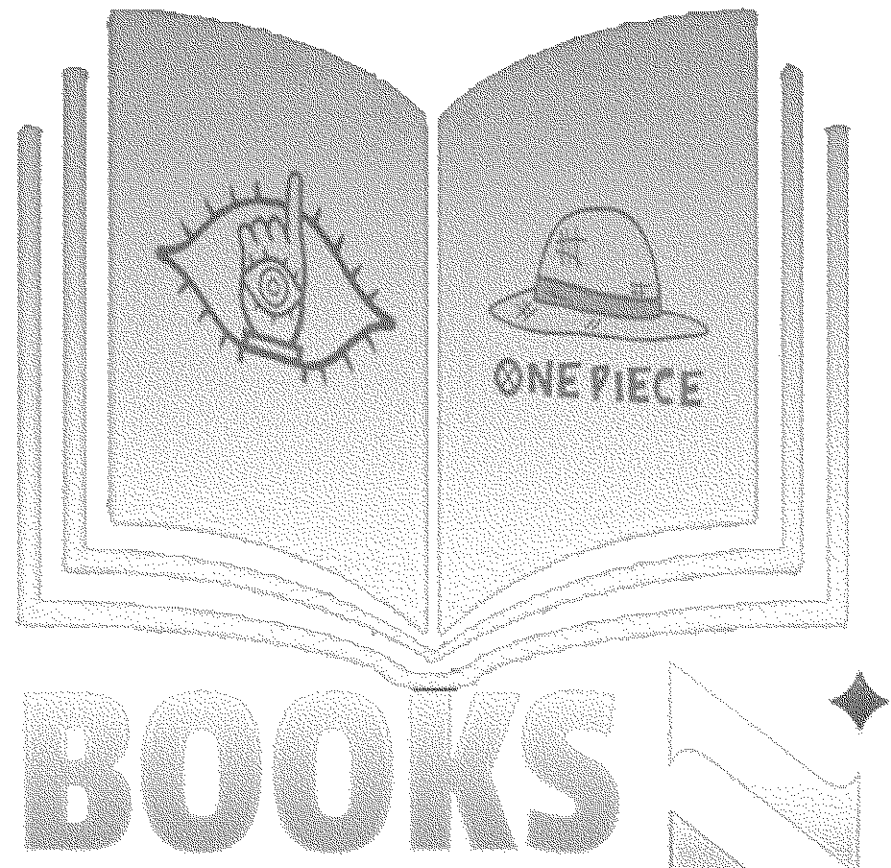

(21)

أمام فتحة البئر الواسعة المظلمة أدرك كم هو أحمق حين جاء إلى هنا متخيلا أن بإمكانه أن ينقذ الصبي، ماذا لو كان المارد هناك داخل البئر؟

بالطبع سيقتله في غمضة عين.

وماذا لو وجد أتباع سارة بانتظاره بالأسفل؟

سيقضون عليه بسهولة وهو لا يملك أي شيء يدافع به عن نفسه غير سكين الطعام الصغير الذي أحضره معه من الوحدة الصحية ووضعه في جيبه، ربما طعن به أحدهم، لكنه لن يقوم بما هو أكثر من هذا وسيغدو بعدها بلا سلاح يحميه.

وماذا عن الهرب من البئر، لو نجح مثلا في مسعاه وأنقذ الصبي؟

هل تساعده قدمه المصابة على الجري والعدو؟

راح يرمق جوف البئر البعيد المظلم، وابتسم وهو يقول لنفسه :

- امض في حماقتك الأخيرة حتى النهاية يا فتحي ولا تتراجع الآن، حتى لا تتهم نفسك بالجبن ما بقي لك من العمر.

كان الوقت ظهرا وتوقع ألا يجد هنا أي أحد من أهالي

البلدة، حتما هم نائمون الآن في بيوتهم، وسارة في طريقها حتما إلى المريض في الوحدة الصحية لتقوم بصلواتها الغامضة من اجله، ولا خطر هناك قد يكون بانتظاره باستثناء الحيوانات، الذئاب أو بنات آوى. من دراسته السابقة كان يعلم أن تلك الحيوانات تنشط في الليل غالبا، وهناك احتمال كبير ألا تعترض طريقه في قلب النهار.

كان هناك حبل من الليف القوي مثبت في عارضة خشبية يتدلى داخل البئر، وكان هناك درج من الحجارة في جانب البئر، والاثنان يمتدان داخل البئر نحو الظلام دون أن يلوح لهما نهاية. تأكد من قوة احتمال الحبل ثم أمسكه بقوة كي يتمسك به لو انزلقت قدمه فوق الدرج الحجري.

تسلق الجدار حول البئر ثم بدأ يهبط الدرج بحذر شديد كي لا يسقط. كانت الدرجات الحجرية صغيرة وبالكاد كان قادرا على الوقوف عليها، لابد أنهم قد استخدموا تلك الدرجات قديما للهبوط لجوف البئر لتنظيف مياهه أو إخراج شيء منه لو احتاجوا لهذا.

بيده وقدمه راح يهبط ببطء. بدأ الظلام يحيط به رويدا رويدا، وراحت فتحة البئر من فوقه تبتعد أكثر وأكثر حتى صارت مجرد نقطة من الضوء وسط الظلام لا أكثر.

كان يشعر بالفزع مع كل خطوة يهبطها، كان الظلام يخيفه، وخياله المتوقد يخيفه أكثر، وقد راح يصور له

عشرات الاحتمالات المفزعة، ما الذي يخفيه الظلام من حوله، هل مجرد جدار حجري زلق مغطى بالطحالب، أم هناك ما هو أخطر. يقولون إن الآبار مسكونة بالمردة والعفاريت والجان. ماذا لو وجد أمام وجهه واحد منهم الآن.

تذكر هيئة أنوبيس فغمغم لنفسه أنهم لن يكونوا أكثر رعبا أو خطرا منه، فلماذا يخاف إذا؟

بعد وقت من الهبوط غرق تماما في الظلام واختفت فتحة البئر تماما عن عينيه، ومازالت الدرجات الحجرية أسفل قدمه لم تنته بعد، وكذلك الحبل في يده لم يصل لنهايته هو الآخر، شعر للحظة وكأن تلك الدرجات الحجرية تمتد حتى باطن الأرض بلا نهاية، لكنه الحبل انتهى مرة واحدة في نفس اللحظة التي وصلت فيها قدمه لنهاية البئر.

توقف للحظة وهو يلهث كي يهدئ من روعه ويسترد جنانه، وهو يكتم صوت أنفاسه وكأنما يخشى أن توقظ الشياطين الرابضة في الظلام. وبعد نحو دقيقة أخرج علبة ثقابه وأشعل أحد أعوادها ليرى المكان. كان البئر متسعا وكانت الجدران من حوله والحجارة أسفل قدمه جافة تماما. هذا يعني أن البئر قد نضبت مياهها منذ زمن بعيد، لكن الذي أصاب قلبه بالارتجاف كانت تلك الفجوة الضخمة في جانب البئر والتي عجز ضوء عود الثقاب عن اختراقها.

هل تكون الإجابات خلف تلك الفجوة أم فقط هو الموت ما ينتظره بداخلها وابتسامة ساخرة ترتسم على وجهه.

ظهرت أشباح رفاقه في ركن من أركان البئر في نفس اللحظة التي انطفأت فيها عود الثقاب. وبينما أخرج عود ثقاب آخر ليشعله راحوا يهمسون في الظلام في أذنه في تحذيرات اختلطت ببعضها:

- ما الذي تفعله أيها الجندي المغفل، ماذا تفعل هنا؟ هل تريد الموت؟!

- اهرب يا فتحي، اهرب بسرعة، أنت لا تعلم يا صديقي الهول الذي ينتظرك.

- عد أدراجك يا أحمق، خلتك أذكى من أن تقترف حماقة كهذا.

- فر بجلدك يا دكتور، إنهم لم يشعروا بك بعد، لكنهم قريبا سيفعلون.

شتت الأصوات ذهنه ووجد نفسه يفشل في إشعال عود الثقاب فهشمه بأصابع يده ووجد نفسه يصرخ في توتر ممتزج بالغضب:

- صمتا.

ثم ندم على صراخه على الفور حين تردد صدى كلمته بين جدران البئر وداخل الفجوة المظلمة في إيقاع مخيف جعله يرتعش، كانت صرخته كفيلة في وقت

كهذا بإيقاظ جيش للموتى، عض شفته السفلي في غيظ وهو يؤنب نفسه، لماذا لم يتحكم في أعصابه أكثر، ولماذا صرخ؟

لو كان هناك من يعيش في قلب تلك الفجوة فقد انتبه إليه حتما.

ظل لنحو الدقيقة أو أكثر متجمدا في مكانه في الظلام كاتما أنفاسه، وقد أرهف سمعه ليرى إن كان هناك من شعر به فنهض ليستطلع الأمر أم لا، راح قلبه يدق في عنف داخل صدره وراح صوت ضرباته يتردد كقرع القبول في أذنيه، في تلك اللحظة سمع في داخل أذنه همسة توسل بصوت ممرضه جورج ملاك:

- اهرب الآن يا دكتور. اهرب ارجوك.

لكنه قطار الحماقة قد غادر محطته ومضى كثيرا في طريقه ومن العسير إقناعه بالعودة الآن، لذا وجد نفسه دون أن يشعر يشعل عود ثقاب آخر. رأى أشباح رفاقه يسدون مدخل الفجوة وكأنما يرغبون في منعه من التقدم. وللمرة الأولى يرى نظرة الإشفاق تلك في وجوههم وأعينهم الشاحبة، رغم هذا اندفع نحوهم واخترق أجسادهم الأثيرية ودخل الفجوة.

بعد أمتار قليلة لاحظ المشاعل الموزعة على الجدران، مع الوهج الأخير لعود الثقاب أشعل واحد آخر وبلا تردد تحرك نحو الجدار والتقط أحد المشاعل وأشعله بعود الثقاب. صارت الرؤية أكثر وضوحا الآن، وأدرك أنه في

قلب فجوة جدرانها وسقفها من الحجارة، بدا الأمر وكأنه يتحرك داخل كهف في قلب الجبل. كان هناك الكثير من المشاعل على الجدران، بانتظار شرارة النار كي تتوهج وتحيل ظلام المكان إلى نهار. لاحظ كذلك دنين نظر للخلف أن رفاقه لم يتبعوه لداخل الفجوة.

هل تخشى الأشباح دخول هذا المكان، وهل هناك خطر قد يخشاه المرء بعد موته؟!

كانت قدمه تؤلمه، ورغبة عارمة تتصاعد في داخله تدعوه للتوقف والفرار إن كان هذا الخيار لا زال ممكنا، كان يدرك أن التردد لو تملكه فلن يمضي إلى أي مكان الآن، لذا تجاهل كل هذا واندفع في قوة نحو أعماق الفجوة.

بعد نحو الدقيقة ضاق الممر كثيرا حتى صار يكفي عبور جسده فقط، ثم سمع أنين خافت يأتي من مكان ما. توقف للحظة ودار بجسده ليتبين من أين يأتي، فشل في هذا فقرر أن يواصل التقدم.

ازداد صوت الأنين وضوحا، كان أنينا بشريا. ارتجف جسده وهو يتقدم ببطء، حتى وصل لفجوة في المر على يساره، دفع ضوء اللهب داخلها فرأى رجلا هزيلا، احترق أغلب جسده، ومقيد بقيود من حديد إلى الجدار.

إنه مصدر ذلك الأنين بلا شك. كانت الرائحة هناك مريعة، خليط من رائحة لحم محترق وعفن وكبريت. متوترا دلف فتحي الفجوة فغطي ذلك الشخص عينيه

بيده الغير مقيدة وهو يهتف في صوت ضعيف:

-أبعد ذلك الضوء عني.

-من أنت؟

قالها فتحي وهو يخفي ضوء اللهب خلف ظهره، تأمله فتحي للحظات، كان مصابا في أغلب جسده بحروق رهيبة أذابت جلده وعضلاته، لم ير في حياته مثل هذا القدر من الحروق في إنسان حي، كان يعلم أنه بحاجة لإسعاف عاجل.

- أنت الطبيب الجديد، أليس كذلك؟

قالها الرجل وهو يجاهد ليرسم ابتسامة على وجهه، فشعر فتحي بالتوتر فهمس:

-هل تعرفني؟

- كلا. إنه مجرد تخمين؟

-لم تجب على سؤالي بعد. من أنت، ومن الذي فعل بك هذا؟

- ألا تعلم حقا؟ أنا الدكتور أشرف الدمرداش. ألم تقرأ مذكراتي؟

تأمله فتحي للحظات، كان يشبه صورة الطبيب بالفعل. فقط تغير كثيرا بفعل الهزال والحروق، إذا فهو محبوس هنا ولم يمت كما اعتقد. اندفع نحوه وهو يقول:

- دعني أفك قيودك أولا.

-لا داع لهذا. لقد فات الوقت، فقط استمع إليّ.

- أنت بحاجة لعلاج عاجل.

- بل أنت من لا يدرك الحقيقة، هل تريد نصيحة لن تحظى بمثلها في هذا المكان. غالب عناك واتبع أنوبيس.

قالها بصوت أكثر قوة من صوته الواهن القديم. تراجع فتحي للخلف لخطوتين في قلق، فلاحظ بجانب عينيه أنه هناك ظل مريب يتحرك خلف ظهره، وبينه يستدير للخلف بسرعة انطفأ ضوء المشعل بغتة فغرق المكان في الظلام. شهق فتحي متوترا واستدار ثانية نحو البقعة المقيد فيها الدكتور أشرف، هذه المرة لم يتمالك نفسه أكثر وهو يرى عينين دمويتين في الظلام حيث كان الدكتور أشرف وهما تحدقان نحوه في ثبات وشر.

كادت قدمه المصابة تتهاوى لولا أن تمالك نفسه وأسرع بإيقاد عود ثقاب. هذه المرة لم يجد الدكتور أشرف فقط كانت هناك بقايا عظام بالية مكومة لشخص مات بلا شك منذ زمن. تراجع للخلف في خوف حقيقي وهو يفكر، هل تخص تلك العظام الدكتور أشرف، وهل كان يتحدث منذ لحظات إلى شبحه؟

كان يشعر بفزع حقيقي هذه المرة، فزع لم يتخيله من قبل، قرر أن يعود أدراجه لكن الممر من حيث أتى كان

مسدودا بجدار صخري. راح يتحسسه في جنون وهو يهمس لنفسه:

- لقد كان هنا. أنا متأكد. أين اختفي ذلك الممر الملعون؟

ثم خبا ضوء عود الثقاب. أسرع بإشعال واحد آخر ومع أول ضوء له فتح عينه ليجد أنه لم يكن بمفرده، كان هناك الكثير من الصبية يحيطون به، صبية بعيون بيضاء تماما ووجوه زرقاء. وجميعهم ينظرون إليه في شر. سقط عود الثقاب من يده ليسود الظلام مرة أخرى، وهو يصرخ في رعب ويده تضرب الفراغ من حوله:

- كلا ابتعدوا عني أيها الشياطين. ابتعدوا عني.

ورغم الظلام اندفع للأمام ليهرب من الصبية ذوي الوجوه الزرقاء. اصطدم رأسه بجدار وشعر بالدماء الساخنة تسيل على جبهته ودوار عنيف يحيط برأسه لكنه تمالك نفسه ونهض بسرعة وواصل السير في الظلام وهو يمد يديه أمامه ليتحاشى بهما أي عائق. اصطدمت قدمه السليمة بجانب الجدار فصرخ من شدة الألم وهو يواصل التحرك ببطء أكثر معتمدا على قدمه المصابة وبعد بضعة أمتار انقطعت أنفاسه تماما وشعر أنه غير قادر على مواصلة الحركة ولو لمتر واحد آخر.

توقف بمكانه وراح يسترق السمع في الظلام في هلع ليتأكد إن هناك خطر يتربص به في الظلام. ما سمعه لم يكن غير أنفاس منتظمة لبضعة اشخاص يختفون

في الظلام. إنه ليس وحدة في الظلام إذا، هناك آخرون غيره.

تمنى من الرعب أن يفقد الوعي، وألا يفيق ثانية، كي ينتهي كل هذا الفزع الذي يشعر به، لكن هذا لم يحدث من سوء حظه، لم يكن هناك بد من أن يشعل عود ثقاب جديد ليرى أي خطر يحيق به.

هذه المرة وجد أنه غير محاط بالخطر كما توهم. كان يقف في فجوة حجرية أخرى وهناك على الأرض تكوم الرجلان العجوزان اللذان جلبا الشيخ صالح للوحدة الصحية وفي ركن آخر كان لبيب يرقد نائما.

تلفت حوله فلم ير أي شيء آخر. ظل في مكانه للحظات حتى استعاد أنفاسه وبعض قوته وقد تذكر مهمته الأساسية، إنقاذ لبيب. في نفس الوقت الذي انتبه فيه ثانية للمشاعل المعلقة بالجدار. أشعل واحد منها وأمسكه بيد ثم اتجه نحو لبيب وحمله فوق كتفه وعاد ثانية للممر الصخري. كان مفتوحا في اتجاه واحد، ورغم أنه لا يعلم إن كان هذا الاتجاه يقوده نحو الحرية أم هلاكه فقد تحرك فيه. هذه المرة كان ضوء مشعله ضعيفا وبالكاد كان ينير أمامه لبضع خطوات فقط.

بعد وقت قصير بدأت ظلال مرعبة تتراقص على الجدران من حوله، وكأنها لعفاريت أو مردة تريد اقتناصه، حاول تجاهل كل هذا وهو يواصل التحرك، ازدادت الظلال كثافة واحتشد الظلام من حوله أكثر وأكثر حتى صار

ضوء المشعل ضعيفا وكأنه مجرد عود ثقاب صغير. وعلى بعد خطوات وجد الصبية الصغار ذوي الوجوه الزرقاء والعيون البيضاء أمامه وهم يسدون الطريق عليه. حرك المشعل في وجوههم وهو يصرخ في فزع:

- ابتعدوا أيها الملاعين.

لم يتحركوا لكنه سمع هسيس غاضب بجوار أذنه من الناحية التي يحمل فيها لبيب. نظر إلى وجه لبيب فرأى أنه لا يحمل الصبي.

كان يحمل القرد، وكان الأخير ينظر نحوه بعينيه الصفراوين في غضب ومقت.

صرخ فتحي وهو يحاول أن يلقيه بعيدا عنه، لكن القرد أمسك في نفس اللحظة بجانبي رأسه وبدأ يضغط عليهما بقوة كافية لتحطيمه، نفس ما فعله به في الكوابيس.

كاد يهشم جمجمته بيده.

راح فتحي يصرخ وهو يحاول تخليص نفسه من يدي القرد حين سمع صوتا مألوفا:

- دعه لنا واهرب أيها الجندي.

كان صوت الصول إبراهيم. وشعر بيدي القرد تبتعدان عن رأسه في تلك اللحظة، وعلى ضوء المشعل الملقى أسفل قدميه شاهد المنظر الغريب. كانت أشباح رفاقه

تحيط بالقرد وتتصارع معه في عنف. ظل في مكانه للحظة يراقب الصراع حتى سمع صوت الرائد محمد شريف يصرخ فيه:

- لماذا توقفت أيها الجندي. واصل الهرب.

وفي نفس الحظة اشتعلت النار في شبح الرائد محمد، فظهرت على وجهه علامات ألم شديد وكأنما يعاني من عذاب ضخم قبل أن يتلاشى للأبد وقد خلف وراءه مجرد ضباب أبيض اللون سرعان ما اختفى. اشتعلت النار بعدها في طيف في شبح جورج ملاك وسعيد المسيري، وكما حدث للرائد محمد راحت ملامحهما تتقلص في ألم، ثم تحولا هما الآخران إلى مجرد ضباب خفيف.

أدرك فتحي أن أشباح رفاقه تحارب معركتها الأخيرة لتنقذه من هذا الكائن الشيطاني، الذي بدا أقوى منهم جميعا وراح يحرق أشباحهم. كان عليه أن يستغل تلك الفرصة النادرة في انشغال القرد في القتال للابتعاد عن المكان.

هنا واصل فتحي العدو بكل قواه، وهو يدعو الله ان يعثر على طريق الهرب، لا يدري كم مضى من الوقت وهو يعدو في ممر حجري لا ينتهي، لكنه سقط فجأة على الأرض حين تعلق شيء ما بقدميه. طار المشعل بعيدا، وشعر بيديه تتمزقين من أثر السقوط، وحين نظر لقدمية كانت هناك ذراعان مخلبيتان تخرجان من باطن الأرض الصخرية وتمسكان بهما وتقيدانه.

حاول تخليص نفسه منهما ففشل، وجد نفسه يلهث في عجز ورعب وقهر.

أدرك أنها النهاية حين خرج من الجدران التي تحيط به الأطفال الصغار الزرق واتجهوا نحوه ثم احاطوا به في هدوء مميت.

ومن نهاية الممر وعلى ضوء ما تبقى من وهج المشعل رأي ظل بشري يتقدم نحوه في ثبات، رفع عينيه في سرعة ليطالع وجه سارة التي كانت ترمقه في هدوء قبل أن تقول:

- مرحبا يا دكتور يا عبد الوهاب. لقد كنا بانتظارك.

وكان هذا آخر ما شعر به قبل أن يهوي عقله في الظلام.

***

(22)

حين أفاق فتحي وجد نفسه ولدهشته، راقدا على ظهره فوق فراشه. العجيب أنه في تلك اللحظة لم يشعر بغرابة وضعه ولا تساءل كيف انتهى به الأمر في حجرته ثانية، الأكثر غرابة أنه وجد في يده كشكول مذكرات الدكتور أشرف، المذكرات نفسها التي اختفت بغتة كالعدم من قبل أن يكملها، والآن ها هي مرة أخرى بين أنامله، ووجد نفسه يواصل قراءتها من نفس الصفحة التي توقف عندها من قبل.

- من مذكرات الدكتور أشرف سمير الدمرداش

- تطورت الأمور بسرعة في البلدة، لم أعد أرى سكان البلدة في أي وقت، وحين جربت التسلل للمقابر في الليل كنت أعثر على اغلبهم هناك. فقط تكرر أمر العجائز المحتضرين الذين يجيئون بهم للوحدة الصحية ويطالبونني بالعناية بهم لثلاثة أيام ثم يعودون ليأخذوهم مرة أخرى، بالطبع تعلمت ألا أتناول الطعام الذي يأتيني به عبد النبي في تلك الأيام، ولهذا كنت أتوارى في منتصف الليل خلف النافذة وأنا أراقب برعب طقوسهم الليلة المخيفة.

واظبت سارة على زيارتي، وفي هذه المرحلة قررت أن أداري كل شكوكي، وأن أتجاوب معها في كل ما تطالبني أو تخبرني به، كنت أرغب بعنف في معرفة الحقيقة

كاملة، ولن احصل عليها بلا شك لو شعرت بشكوكي.

في قلب المعبد بعد عصر يوم خريفي دافئ بدأت تقص لي كيف جاء هذا المعبد ولماذا بناه القدماء في قلب الصحراء. كانت الحكاية قديمة للغاية، وكما زعمت فإن القصة كانت في مصر قبل بداية عصر الأسرات القديمة نفسه.

تقول القصة المعروفة التي درسناها بالمدارس، أن أوزوريس تزوج من إيزيس وأنجبا حورس، لكن أوزوريس أحب كذلك أخته نفتيس وكانت ثمرة علاقتهما هو أنوبيس، وحين علمت إيزيس بالقصة شعرت بالغيرة والغضب، وكان أن أمرت بنفي الطفل إلى العالم الآخر ليكون مسؤولا عن الموتى والتحنيط والمقابر.

لكن سارة كانت تصر على أن كل هذا هراء مينولوجي من تأليف الكهنة في العصور المتأخرة ليداروا على القصة الحقيقية.

أصرت على أنه في التاريخ البعيد الغير معروف كانت هناك مخلوقات لا نعرفها الآن ذات قوى هائلة غير محدودة، قالت إنها أتت في زمن سحيق من وراء النجوم، وقتها لم يكن هناك بشر ولم تكن الأرض في ذلك الوقت هي نفسها التي نمشي عليها الآن، بدأ الأمر برجل وامرأة من تلك الكيانات، عاشا بمفردهما على الأرض وأنجبا أربعة أبناء توزعت قواهما المهولة بينهم، الكبير كان أوزوريس والثانية كانت إيزيس والثالثة هي

نفتيس والرابع كان أنوبيس. ورغم أن أنوبيس كان أصغرهم إلا أنه كان أكثرهم قوة وقد منحه أبويه قبل أن يتلاشيا نحو العدم كل ما بقي في داخلهما من قوة وسحر قديم.

يقال إن أنوبيس كان أكثرهم جمالا وعدوية وميلا للحياة، كان يحب أخوته كثيرا، ولم يكن يضمر أي شر نحوهم. لكن أخوته الأكبر منه كانوا يكنون له في نفوسهم الكثير من الحقد والغيرة لأنه حظي بأغلب قوى أبويهما، كما خشي أوزوريس أن يقدم على استخدام تلك القوى الهائلة بداخله ضدهم يوما ما.

كان من المفترض أن يتزوج أوزوريس بإيزيس وأن تكون نفتيس زوجة أنوبيس. لكن أوزوريس قرر بالاتفاق مع أختيه وقد كانا يحبانه ويطيعانه أن يتزوج هو بالاثنتين وأن يطردوا أنوبيس نحو المستنقعات البعيدة. مضت الأعوام وأنجب أخوته الكثير من الأطفال، وأنوبيس في منفاه يشعر بالغضب والحسرة، في النهاية قرر أن يعود وأن ينتقم، لكن العقبة كانت أن قواه وإن كانت عظيمة فإن قواهم مجتمعة أكبر منه وسوف يقضون عليه بلا شك في أي مواجهة.

استعان بالحيلة، حول نفسه بالسحر إلى صورة كلب، وانطلق إلى ارض أخوته، وهناك راح يتربص بأبناء أخوته الصغار ويقتلهم ثم يلتهمهم، ومع كل طفل يقتله كان يمتص المزيد من قوة أخوته. في النهاية قضى على كل الأطفال وحينها صار قوى للغاية، كان قادرا وقتها على

القضاء على أخوته جميعا، وفي ذلك الوقت أدرك الثلاثة أوزوريس وإيزيس ونفتيس أنه الأقوى، وأنه هو من قتل أبناءهم.

قرروا الانتقام، ولكن كان عليهم اتباع الحيلة، دعوه لمأدبة للصلح، وأخبره أوزوريس أنه سيترك نفتيس لتكون زوجته كما كان مقدرا من قبل، وفي المأدبة أعطوه الكثير من الخمر حتى ثمل وفقد وعيه، حاولوا قتله وهو ثمل، فلم ينجحوا، فرغم كل شيء كان هو أقواهم. لكنهم وبما تبقى من قواهم وسحرهم أرسلوه إلى العالم الآخر وقد سحروا رأسه ليحمل رأس كلب للأبد كعقاب على قتل أبناءهم، وحكموا عليه أن يكون راعيا للعالم الآخر وأن يعتني بالموتى من أبناءهم، لم يكن هذا كل شيء، فقد جعلوا غذائه الوحيد الذي يرد إليه قواه هو أرواح الصغار، ونتيجة لهذا لم يعد ممكنا أن يرى ضوء الشمس ثانية وإلا أحرقته.

مضت عهود كثيرة، وظهر البشر وعبدوا تلك الكيانات القديمة ونسى الكل القصة الحقيقية، حتى عثر كاهن صغير يدعى (كا سن رع) وقد كان من كهنة منف ويتبع الإله أمون رع، على مخطوطات قديمة تتحدث عن القصة الحقيقة، كان قد بدأ يشك في جدوى كل الطقوس التي يقومون بها في معابد منف إرضاء لآلهة لا تسمع ولا تمنح ولا تستجيب. فلماذا لا يبحث عن إلهه هو؟ لماذا لا يبحث عن إله حقيقي يمنحه القوة ويحوله إلى كاهن أكبر ذي شأن. ولأن قدماء المصريون كانوا بارعين في

فنون السحر المظلم فقد بدأ الكاهن مباشرة في البحث عن الطقوس المناسبة لإعادة أنوبيس من العالم الأخر. رحل الى الصحراء وحاول كثيرا وقدم الكثير من القرابين وفي النهاية نجحت الطقوس.

علم منذ البداية أن سيده لن يخرج للعالم إلا في ظلام الليل وإلا حرقته الشمس. علم أن سيده بحاجة للقوة والقوة التي ينشدها لن تأتي إلا من القرابين البشرية من الأطفال والصبية. علم أن سيده بحاجة للمزيد من الاتباع الذين سيكونون باكورة جيشه الذي سيحكم به العالم. سجد الكاهن معلنا ولاءه فمنحه أنوبيس قوى غير محدودة لتساعده على القيام بعمله راح يختطف الأطفال ويقدمهم كقرابين لسيده في الليل، راح يجمع الأتباع عن طريق منحهم أو منح أحبائهم الشفاء من أمراض لا علاج لها، وكان شرط ذلك الكاهن على أي واحد يرغب في الانضمام إليهم أن يقوم بقطع لسانه، فأنوبيس لن يقبل بلسان مجد إلها آخرا غيره.

وحين كثر الأتباع وشاع أمرهم، بدأت المعركة الكبرى بينهم وبين الكهنة من أتباع آمون رع، في الواقع مات الكثير من الكهنة في تلك الأيام عن طريق عمليات اغتيال قام بها أتباع أنوبيس، وبالاستعانة بسحر أنوبيس حل الظلام بأرض مصر ليل نهار واختفت الشمس، وبدأ أتباع أنوبيس يجوبون الشوارع في تحد واضح للجميع، وبدأوا يدعون الناس لتقديم أبنائهم قرابين لأنوبيس وأن ينضموا له وإلا ماتوا.

سادت الفوضى لفترة حتى استجمع الكهنة لقدامى قواهم، ونجح سحرهم في التغلب على سحر أنوبيس وأعادوا النهار ثانية، ثم راحوا يطاردون أتباع أنوبيس في كل مكان ويقتلونهم بأبشع وسيلة ممكنة.

كانت الهزيمة قريبة، رآها (كا سن رع)، فاصطحب ما تبقى من الأتباع وانطلق إلى الصحراء البعيدة هربا من كهنة آمون رع، هناك عثروا على واحة صغيرة، استقروا بها ولأعوام طويلة ويجهد جهيد بنوا معبدا عظيما لسيدهم، ذكروا على جدرانه القصة الحقيقة له كي لا تضيع مرة أخرى، ولأنهم قتلوا كل أبنائهم حين قدموهم كقرابين لسيدهم، فقد انقطع نسلهم، ومع الوقت راح الاتباع يموتون وكان (كا سن رع) آخرهم، وقد ظل بمفرده يحيا في تلك الواحة ويعبد سيده لنحو مائتي عام.

لابد ان أحد ما قد اكتشف طريق الواحة بعد عقود طويلة، ربما كانوا مجموعة من البدو أو الطوارق أو العربان، استقر هؤلاء في الواحة وعمروها ،أطلقوا عليها دير النعمان، لكنهم تعلموا منذ البداية أن هناك خلف التلال معبد مدفون ملعون، وأن الشياطين تسكن جدرانه، وأنه يمثل خطرا كبيرا على أطفالهم، حيث لم يذهب إلى هناك أي طفل إلا واختفى على الفور، وكأنما يتبخر في الهواء أو تبتلعه الأرض.

ثم جاءت سارة لتدرس عادات الشعوب البدائية كما تزعم، واكتشفت طريق المعبد، كانت تقسم على أن روح (كا من رع) قد تلبستها، وجعلت منها الكاهنة الكبرى

لأنوبيس، وعلمتها الطقوس المناسبة لإعادة أنوبيس للعالم ثانية، كما أمرتها روح الكاهن القديم بجمع الأتباع مرة أخرى، بعد أن منحها (كا سن رع) كل قواه.

أخبرتني سارة أن الأمر كان عسيرا، فمن المستحيل إقناع أهل البلدة المسلمين بترك دينهم السماوي واتباع إله وثني قديم، لكنها استعانت بسحر قديم دسته في مياه آبار البلدة كلها وأصاب أهالي البلدة كلها بمرض لعين راح يحلل أجسادهم وهم أحياء. هنا بدأت في تنفيذ مخططها حين عرضت عليهم علاجهم بسحرها، وبعدها صارت البلدة كلها من اتباعها وأتباع سيدها.

أرادت سارة مني أن أتبعها أنا الآخر بكامل إرادتي، راحت تتحدث بحماس عن المنح العظيمة التي سوف أحصل عليها لو وافقت، وأولها بالطبع أن تكون هي لي، تكلمت عن الحياة الدائمة لقرون طويلة سويا، عن العالم الذي سوف نحكمه معا يوما ما تحت الاستعانة بأنوبيس.

في الواقع كنت متأكدا أن الفتاة الغريبة التي سقطت في حبائل عشقها قبل اليوم قد جنت تماما، وحتى لو كانت الشواهد تؤكد أن هناك شيطان قد سيطر على تلك البلدة الصغيرة فلا أظن أنها بقادرة على الظفر بما هو أكثر، دعك من أني في النهاية رجل مسلم ولن أتبع تلك الخزعبلات لأي سبب كان.

لم أخبرها برفضي، وقررت البحث عن حل لأنقذ تلك البلدة البائسة من تلك المجنونة وشيطانها المزعوم،

يمكنني بالطبع أن أغادر البلدة كلها وأنساها ولأدع للأخرين مهمة اكتشاف تلك الممارسات الكافرة والتصدي لها، وكان الخيار الآخر محاولة التصدي لتلك الممارسات وحدي، بالطبع لن أنتظر المساعدة من أحد من أهالي البلدة. وقتها وكأنما ألهمني الله بما عليّ فعله، تذكرت حكاية حكاها لي يوما أحد شيوخ البلدة، لقد قال إنهم عثروا مرة بالقرب من الواحة في قلب الصحراء على بضع عربات حربية ومدرعات تعود للحرب العالمية الثانية، ومن الرمز المطبوع على هياكلها وكان صليبا معكوفا، أدرك الكل أنها تخص الألمان وأنها حتما تعود لبعض جنود القائد روميل الذين كما يبدو قد تاهوا في الصحراء وضلوا طريقهم، كانت المدرعات مكتظة بالمتفجرات والأسلحة، والعجيب أنهم لم يعثروا على أي من الجنود التي كانوا عليها.

فكروا في البداية في التخلص منها، لكن أحد الشيوخ اقترح الاحتفاظ بها وحفظها في مخزن صغير بالبلدة، إنهم ليسوا بحاجة لها الآن لكن ماذا لو هددهم خطر ما في المستقبل؟ يمكنهم حينها بالطبع استعمالها للدفاع عن البلدة وأهلها.

كنت أعلم أين يكون هذا المخزن، وكنت أعلم أنه لا أحد يحرسه، فلا أحد في البلدة كلها قد يفكر في سرقة تلك المتفجرات أو يحاول الحصول عليها. هنا تسللت إلى ذلك المخزن وهناك عثرت على كل ما أرغب فيه. الكثير من أصابع الديناميت والقنابل المتفجرة والتي بدت لي

أنها لا زالت صالحة للاستخدام.

كانت الخطة بسيطة، واليوم هو موعد تنفيذها.

إنه منتصف النهار الأن، الشمس تتربع كبد السماء، ولا أحد هناك مستيقظ في البلدة بأكملها كما أعلم، وضعت المتفجرات في حقيبة جلدية كبيرة. سوف أذهب في البداية إلى البئر، وسوف ألقي بداخله كمية كبيرة من القنابل الكفيلة بردمه تماما. بعدها سوف أتجه إلى ما بقي من المعبد القديم لتفجيره بباقي المتفجرات هو الأخر.

أعلم أن الأمر لو نجح فقد يعني هذا انقاذ البلدة كلها من هذا الشر، لكن ماذا لو فشلت؟

كلا، لا أريد التفكير في احتمال الفشل الآن، فهذا سيعني نهايتي بلا شك.

ليكن الله معي، وليوفقني في تلك المهمة الخطيرة.

انتهت المذكرات، في نفس اللحظة كانت هناك أصوات صاخبة تدوي في أذني فتحي، وحين فتح عينيه ورأي ما يدور حوله علم أنه كان يحلم وأنه الآن يعود لأرض الواقع ليواجه أسوء خطر ممكن.

***

(23)

كان في منتصف المقابر والبئر القديم إلى يساره، كان في قلب الليل وكانت السماء تمطر كعادتها بغزارة.

كانت الطبول القادمة من مكان مجهول تدوي في عنف مزق سكون الليل كله.

من حوله رأي فتحي أهالي بلدة دير النعمان هناك وهم يصنعون دائرة حول المكان ويرتلون بطريقتهم العجيبة تراتيلهم الوثنية التي يستدعون بها بلا شك سيدهم أنوبيس، حيوانات بنات أوى تكومت في ركن وهي ترفع عقيرتها وتصرخ هي الأخرى مع الترانيل، وفي جانب اخر كانت الذئاب محتشدة هي الأخرى وتعوي مع الباقين في نشيد جنائزي مقبض.

كانت سارة تقف إلى جواره، لكنها بدت في جمودها في تلك اللحظة شخصا آخر لا يعرفه. كانت ترتدي زيا فرعونيا أبيض اللون، وفوق صدرها قلادتها الذهبية الغريبة، بينما كانت عيناها غاربتين وتشيان بأن عقلها غائب في مكان آخر.

انتبه فتحي إلى ملابسه، كان هو الآخر يرتدي زيا فرعونيا من أزياء الكهنة القدماء. العجيب أنه كان حرا بلا قيود، ورغم هذا شعر بأن إرادته لم تعد تنتمي إليه وأنها صارت في يد شخص آخر يتحكم فيه.

انطلق في الأفق المظلم لسان من البرق، ودوى الرعد في عنف اهتز له المكان. ومن قلب البئر ارتفع عمود كثيف من دخان ونار، ثم انقشع عمود النار ليظهر أنوبيس.

مارد من ظلام حالك له رأس كلب وعينان صفراوان تتوهجان في ضوء لهبي، وقدمان مشعرتان تنحني ركبتيهما للخلف كقوائم الحيوانات. وفي يده صولجان ذهبي ضخم ينتهي برأس كلب.

كان أنوبيس محاطا في تلك بالكثير من الأطفال الزرق ذوي العيون البيضاء. وخلفه كان القرد هناك بوجهه الشرير وعينيه الصفراويين المشقوقتان بالطول كالثعابين.

ساد الصمت في المكان كله، وقد صوبت العيون كلها في خشية ثم تقدمت سارة نحوه وركنت على ركبتها. وقد خفضت رأسها في خضوع، فتبعها الجميع وركعوا له.

ولذهوله ورغم أنه من المستحيل أن ينحني لأي مخلوق، فقد وجد فتحي أنه يركع مثلهم رغما عنه، حاول المقاومة، حاول رفع رأسه، أو عدل ظهره ليقف، لكن قوة كاسحة لا تقاوم أعجزته عن كل هذا. انطلق من السماء في تلك اللحظة سوط جديد هائل من البرق، ضرب رأس أنوبيس فتوهج جسده كله كمار. رهيب من نار، فزأر أنوبيس في قوة بصوت اهتزت له جدران

التلال من حولهم. هنا نهضت سارة من ركوعها فتبعها الباقون، وبخوف هائل لا حد له أدرك فتحي أن العيون كلها مصوبة نحوه، وخاصة عينا أنوبيس الناريتان، ثم تحرك نحوه انوبيس، وبيد لها أصابع ثلاث رفعه فجأة من وسطه وقربه من وجهه المخيف وعينيه الغاضبتين، ثم دفع رأس صولجانه المشتعل في صدره.

كان الألم رهيبا.

أراد فتحي أن يصرخ كما لم يصرخ من قبل، أن يفقد وعيه، بل تمنى لو يموت في تلك اللحظة، كي يتوقف هذا الألم الهائل الذي يشعر به في صدره، لكن شيئا من هذا لم يحدث. فقط ظل لنحو الدقيقة يعاني من الوجع ثم تركه أنوبيس. هنا بدأ الألم في الانحسار سريعا ثم زال تماما، مخلفا نقشا محترقا ضخما على صدره في صورة رأس أنوبيس الشبيهة بالكلب، وبينما عاد أهالي بلدة دير النعمان لأناشيدهم الوثنية ثانية أشار أنوبيس بإصبعه نحو الصخرة التي يرقد فوقها الشيخ صالح ولبيب.

التقطت سارة أحد المشاعل وقربتها من الأرض فاشتعلت دائرة ضخمة من اللهب أحاطت بالصخرة الراقد عليها لبيب والشيخ صالح. ثم مدت سارة يدها إلى فتحي ووضعت في كفه خنجرها الضخم. وجد فتحي نفسه يلتقط الخنجر من يدها دون أن يرفض وسمعها تقول في صوت بارد رتيب:

- حان الوقت، قدم قربانك لسيدنا أيها البشري.

تحرك فتحي في آلية نحو الصخرة، واخترق النيران الملتهبة دون أن يصيبه سوء. كان عاجزا عن السيطرة على نفسه رغم أنه أدرك في رعب ما سوف يفعله. قوى هائلة على تسيطر على جسده رغم رفض القيام بما هو مقدم عليه.

تعالت صرخات أهالي البلدة.

عوت الذئاب طويلا والضباع وبنات آوى.

وأمام جسد الطفل الراقد فوق الصخرة ارتفعت يد فتحي بالخنجر لأعلى، وبقوة لاحد لها هوى ندو قلب لبيب فاخترقه.

ازداد الصخب في نشوة وزأر أنوبيس في رضا.

وارتفع الخنجر مرة ثانية قبل أن يهوى على جسد الصبي.

وارتفع مرة ثالثة ورابعة وخامسة وهو يمزق الطفل بلا رحمة، هنا نهض الشيخ صالح في تلك اللحظة وتقدم نحو فتحي ثم فتح فمه وأخرج لسانه، فهوى فتحي على اللسان وقطعه بلا تردد، صار هدير الجميع في تلك اللحظة كالجنون نفسه، وأسرعت بنات أوى نحو جسد لبيب وراحت تنهشه وتمزقه وتلتهمه في شراسة.

كان فتحي يشعر بالفزع، والخزي، وتمنى لو استطاع أن

يرفع الخنجر الذي في يده ثم يهوي به على قلبه هو، ليموت في تلك اللحظة، لقد أطاع شيطانا رجيما وقتل بيده طفل برئ. أي عار سيعيش فيه ما بقي من عمره.

لكنه وجد نفسه يتحرك نحو أنوبيس، وينحني أمامه وهو يرفع الخنجر بيديه ويقدمه له، في تلك اللحظة دوى في رأسه صوت رهيب لم يسمعه بشري من قبل:

-لا زالت تقاوم ولا تؤمن أيها الفاني، لكنك قريبا ستفعل.

ثم غاب عقله في ظلام سرمدي.

***

ONE PIECE
BOOKS

(24)

كان الظلام من حوله كثيف للغاية، وكان صدره المحترق ينبض في تلك اللحظة بألم لا يطاق، شعر بضعف لا حد له، لكنه ومنذ أفاق من غيبوبته كان وحيدا في هذا السجن، كان يعلم أنه في قلب البئر، في فجوة مماثلة بلا شك لتلك التي حبسوا فيها الدكتور أشرف، لكن الغريب أنهم لم يهتموا بتقييده، لقد تركوه حرا وكأنما كانوا واثقين للغاية أنه أضعف من أن يفكر في الهرب.

لم تفارق الطقوس اللعينة عقله منذ أفاق. صدره الذي وسمه أنوبيس بصولجانه، ثم لبيب الذي قتله بيده. راح يبكي في جزع طوال الوقت وهو يتمنى لو مات قبل تلك اللحظة. لقد جاء إلى هنا لينقذه وبدلا من هذا قتله بلا رحمة. مضى وقت طويل وهو ينتحب، ثم راح ينظر حوله في يأس وكأنما يفتش عن أحد في الظلام.

في الواقع كان يفتش عن أشباح رفاقه، أين ذهبوا ثم تذكر أنهم قد احترقوا في صراعهم بالأمس مع القرد. ومع الألم والظلام والسكون غاب ثانية في النوم.

أفاق على يد تهزه في قوه وصوت يهمس:

- استيقظ يا دكتور فتحي.

أفاق ليجد ضوء شمعة في مواجهته ووجه امرأة خلفه. كانت عايدة، رمقها في ذعر للحظة وهو يصرخ:

- كلا ابتعدي عني.. ابتعدي.

لكنها أسرعت تقول وهي تمد يدها نحو فمه لتكتم صرخته:

- إنه أنا يا دكتور. أنا عايدة.. لكن لا تصرخ أرجوك، لا أريد أن ينتبهوا إلى وجودي قبل أن أنتهي من عملي.

استعاد جنانه ووجد نفسه يبكي بغتة وهو يقول في صوت متقطع وسرعة:

-أنا آسف يا عايدة، لقد قتلت ابنك، قتلت لبيب بيدي، لكن أقسم أنني لم أكن أقصد. صدقيني لم أكن أقصد.

وضعت كفها فوق فمه وهتفت في حزم غريب:

- لا وقت لهذا، فقط اتبعني بلا صوت أرجوك.

- إلى أين؟

- سوف نخرج من هنا.

قالتها وتحركت أمامه حاملة الشمعة فتبعها في، وهن. سارا في كثير من الممرات الحجرية حتى بلغا قلب البئر مرة أخرى، فوضعت عايدة الحبل في يده وهمست:

-هل يمكنك صعود الدرج؟

رمقها في ذهول وكأنه لا يصدق ما يحدث ثم غمغم:

-هل أحلم؟

هزته في قوة وهي تقول:

-أفق من فضلك يا دكتور، إنها فرصتك الأخيرة لتهرب، فلا تضيعها،

ثم سبقته في صعود الدرج وهي تستطرد في حزم:

-والآن اتبعني.

تبعها على الفور وهو يقبض على الحبل بقوة وشيئا فشيئا راحت فوهة البئر تظهر من بعيد وضوؤها يزداد قوة حتى بلغ حافة البئر وخرج منه خلف عايدة. أصابه الضوء الساطع بالعمى المؤقت فأغلق عينيه لفترة ثم فتحهما ببطء حين اعتاد على ضوء النهار ووجد عايدة ترمقه في جمود غريب، ثم قالت:

- والآن عليك أن تغادر البلدة في الحال. لا يمكنك أن تظل هنا بعد الآن دقيقة واحدة.

- وإلى أين أذهب؟

أشارت إلى طريق صخري على شمال المقابر وقالت:

-لا تخرج عن هذا الدرب حتى تصل إلى مزارع الزيتون، وهناك ستجد الطريق الذي جئت منه في منتصفها. بعدها اجعل البلدة كلها خلف ظهرك وتحرك في الطريق المعاكس حتى تجد النجدة. ربما عثرت عليك سيارة أو بعض البدو. فقط لا تعد إلى هنا مرة أخرى.

رمقها في غير تركيز ثم قال:

- وماذا عنك؟ لماذا لا تهربين معي.

لاح على شفتيها شبح ابتسامة وهي تجيب:

- لقد فات الوقت يا دكتور، لقد ماتت عايدة بالأمس، ماتت مع موت ابنها الوحيد، من تراها شبح امرأة محطمة تحاول ان تنتقم.

ثم أشارت إلى الطريق وهتفت في حزم:

- والآن تحرك ولا تطل الوقت.

رآها تحمل حقيبة جلدية تمتلئ بشيء ما وتعاود هبوط البئر، ثم اختفت داخله، وبلا إبطاء تحرك حيث أشارت، لم يكن قد ابتعد كثيرا حين سمع من خلفه صوت انفجار مكتوم اهتزت له الأرض أسفل قدميه، وحين نظر للخلف كان كل ما رآه عمود من الدخان والنار ينطلق من الأرض نحو السماء. أدرك في تلك اللحظة ما قامت به عايدة، لقد فجرت البئر، وقامت بنفس ما أراد الدكتور أشرف فعله من قبل.

هل قضت بهذا على اللعنة وعلى أنوبيس؟

وهل تحررت البلدة من تلك اللعنة؟

وماذا عن سارة، ما مصيرها الآن وقد تفجر معقل شيطانها القديم.

لم يكن يدري بالطبع، لكنه لن يجازف حتما بالعودة ليتأكد من شيء كهذا. فقط عليه أن يبتعد لأبعد مكان

ممكن كي لا يحاول أحد من دير النعمان تعقبه.

واصل السير حتى بلغ مزارع الزيتون في إعياء، اخترقها حتى بلغ الطريق الرئيسي الذي يمر بها، نظر أمامه فكانت بلدة دير النعمان ببابها الصخري في مواجهته. أولاها ظهره وانطلق عائدا على قدميه في نفس الطريق الذي أتى فيه من قبل، لا يدري كم سار وكم من ليل ونهار مضيا عليه وهو على هذه الحال، فقط في النهاية وقد بلغ منه الإعياء والجوع والعطش مبلغه قرر أن يستسلم لقدره فرقد على الطريق الصخري وأغمض عينيه في انتظار الموت.

لم يشعر بالشاحنة التي توقفت أمامه، ولا السائق العجوز ذي الأنف المحمر من أثر السكر الذي رمقه في تعجب ثم قال:

-يا الله، إنه الدكتور، ما الذي جاء به إلى هنا ومن فعل به هذا؟

ثم رفع نظره نحو الأفق حيث توجد دير النعمان بعد نحو عشرين كيلو متر وقال وهو يضرب كفا بكف:

- إنها تلك البلدة الملعونة مرة أخرى، لقد حذرته، لكنه كان كالباقين أحمق عنيد.

ثم حمله ووضعه في شاحنته واستدار عائدا.

***

الخـــــاتمة

-دكتور فتحي، هل تعلم أين أنت الآن؟

كان الدكتور محمد عبد الستار مدير مستشفى العباسية للأمراض العقلية يتحدث إليه وهو ينظر لجدران الحجرة التي امتلأت برسومات طفولية عجيبة مرسومة بقلم رصاص، كانت هناك صور كثيرة لرجل له رأس كلب يصعد مما بدا أنه كبئر، أطفال صغار مقطوعي الرأس، كلاب كثيرة وفتاة طويلة في يدها سكين. كانت الرسومات تتكرر بشدة في كل شبر من الجدران ممتزجة بأسماء تتكرر هي الأخرى أنوبيس وسارة وعايدة ودير النعمان.

لم يجب فتحي، فتطوع الطبيب الشاب الذي يرافق الدكتور محمد في الإجابة:

-إنه يرفض التحدث الآن كما أخبرتك يا سيدي؟

أشار الدكتور محمد للجدران وقال في حيرة:

-وهو الذي رسم كل هذا؟

-أجل يا سيدي.

-ومن أعطاه القلم ليفعل هذا؟

شعر الطبيب الشاب بالتوتر فاحمرت أذناه من التوتر وهو يجيب:

-لقد كان يهذي في البداية بكلام غير مفهوم. كان يصرخ طوال الوقت وهو يردد حكايات غير مفهومة، قال إن الشيطان سوف يدمر العالم، وأن أنوبيس قد عاد، وأنه قتل أشباح زملائه الذين ماتوا في الحرب، وأن سارة لها كلبان سوف يأكلانه. لم أفهم الكثير من الضلالات والهلاوس التي يخبرنا بها، وحين صمت تمامًا بعدها ورفض التحدث، قررت القيام بحيلة جديدة، فمنحته (قلم رصاص) لأرى ما سوف يحاول كتابته أو رسمه.

هز الدكتور محمد رأسه في بطء، ثم قال لفتحي:

-هل يمكنك أن تخبرني يا دكتور فتحي، ما معنى كل هذا. ومن هي سارة أو أنوبيس هذا الذي تتحدث عنه؟

لم يلتفت إليه فتحي أو يبدو على وجهه أي أثر لحديث الدكتور محمد، فقال للطبيب الشاب:

-منذ متى وهو هنا؟

-منذ أسبوع كامل. جاء به سائق غريب وقال إنه وجده في الصحراء وقد فقد عقله، لكنه حين أخبرنا أنه طبيب اهتممنا بالطبع كثيرا وخاصة حين وجدنا في جيوبه بطاقة شخصية تؤكد هويته.

مرة أخرى هز الدكتور محمد رأسه في هدوء قبل أن يغمغم:

- وماذا عن الوشم الذي أخبرتني عنه في صدره؟

تحرك الطبيب الشاب نحو فتحي وجذب قميص لأسفل يكشف عن ندبة كبيرة في صدره على صورة رأس كلب، وقال:

- إنها هذه يا سيدي، لقد تم صنعها بالكي بالنار كما ترى.

وهل أخبرتم الدكتور محمد شاهين بتلك الحالة؟ إنه شغوف كما تعلم بتلك الحالات المرضية المرتبطة بأحداث غامضة غريبة.

أسرع الطبيب يقول:

- ليس بعد يا سيدي، لكنني سوف أتحدث إليه في الغد.

رمق الدكتور محمد الوشم مرة أخرى في حيرة، قبل أن يقول:

- ترى من فعل به هذا؟

في المساء كان المكان هادئا للغاية وضوء خفيف للغاية ينتشر في الممرات بين حجرات المرضى، المرضى ناموا جميعا والممرضين والحراس بعضهم قد نام هو الأخر والباقون يجلسون في أماكنهم يقتلهم السأم والملل.

كان فتحي راقدا حينها على جنبه في المستشفى وقد استسلم للنوم، بفعل المهدئات الكثيرة التي يعطونها له، لكنه مرة واحدة فتح عينيه وقد أفاق بغتة من سباته،

ثم جلس على طرف الفراش.

ارتعش النور في الخارج وأظلم المكان كله، للحظات ثم عاد الضوء، هنا رأى فتحي سارة تقف أمامه وهي تبتسم، وفي يدها خنجرها الغريب. وإلى جوارها ظهر القرد بعينيه الصفراوين وهو يرمق فتحي في هدوء. لم يبد على فتحي أي أثر للمفاجأة أو الخوف. فقط ظل ينظر إليهما هو الآخر في هدوء، حتى قالت سارة:

-مرحبا يا دكتور فتحي، والآن هل أنت مستعد؟

أجابها فتحي بأن فتح فمه وأخرج لسانه نحوها، فابتسمت له وهي ترفع خنجرها وبحركة سريعة قطعت لسانه، فطار اللسان المقطوع وسقط أسفل الفراش في نفس اللحظة التي أظلم فيها المكان كله مرة أخرى.

وحين عاد النور كانت الغرفة فارغة تماما. ولا شيء هناك غير أثر لبعض الدماء الطازجة على طرف الفراش والأرض ولسان مقطوع ملقى أسفل الفراش.

وكان هذا كل ما وجوده في الحجرة في اليوم التالي.

أما عن فتحي، فلم يعثروا عليه أبدا.

تمت